رواية

جابر خليفة جابر

مخيم المواركة

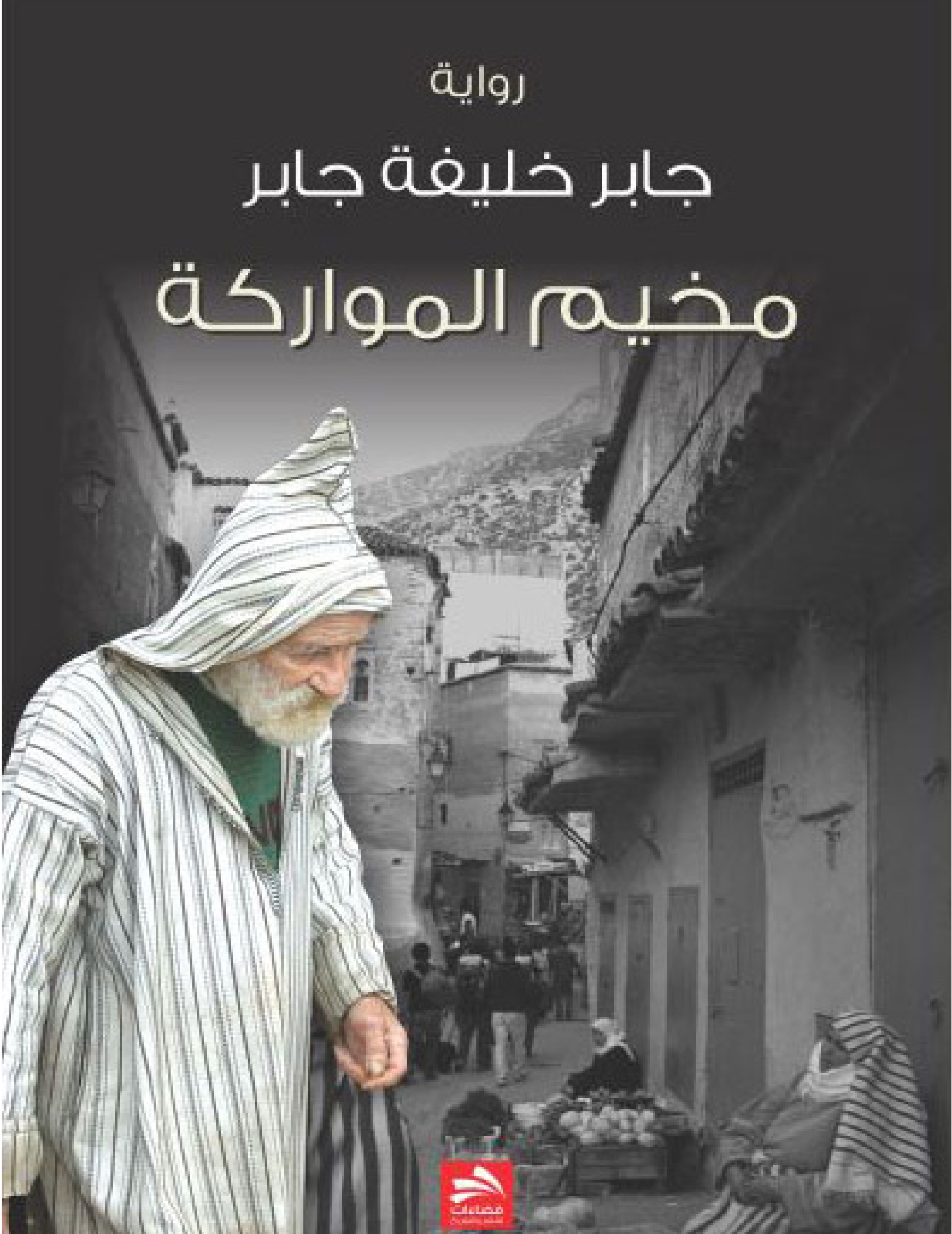

فضاءات

مُخيّم المُواركة

روايــة

جابر خليفة جابر

ISBN: 978-9957-30-273-3

الطبعة الأولى: 2012

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق

مخيم المواركة – جابر خليفه جابر . – الأردن

دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي

عمان- شارع الملك حسين-مقابل سينما زهران

تلفاكس: 4650885 (6 -962+) هاتف جوال: 911431/ 777(962(+

ص.ب 20586عمان 11118 الأردن

Dar_fadaat@yahoo.comE.mail:

http://www.darfadaa.com Website:

التوزيع في تونس:

فضاءات للنشر والتوزيع – فرع تونس

شارع الهادي نويرة. النصر -**II** تونس 2037

تلفاكس: 21 65 82 70 (216+) – الجوال 39 42 29 98 (216(+

E.mail: fadhahet @yahoo.com

http://www.darfadaa.com Website:

الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة.

إعتراف

لأن عـــمار إشـــبيليو، هـــو مـــن أرســـل هـــذه الروايـــة كاملـــة إلى بريـــدي الإلكتروني:

(jabir_kh@yahoo.com)

ولأنـــه –كـــما اعـــترف بنفســـه – نقلهـــا عـــن راوٍ آخـــر، مـــن أســـلافه، عـــاش قبـــل أكثر من أربعة قرون، واسمه، عمار إشبيليو، أيضا.

ولأن عـــمار إشـــبيليو الأول ذاك، هـــو الآخـــر لـــيس المؤلـــف الحقيقـــي للروايـــة، كما ذكر حفيده، عمار إشبيليو الأخير عنه.

ولأن عـــمار إشـــبيليو الأول لم يـــذكر لنـــا بالتحديـــد مـــن هـــو مؤلـــف الروايـــة، المســـمى ب حامـــد الأندلسي، هـــل هـــو شـــقيقهُ حامـــد بـــن قمـــرين، أم هـــو حامد بن كناري أخته؟

وغـــير هـــذا، لا أحـــد يعلـــم كيـــف اجتـــازت الروايـــة مئـــات الســـنين لتصـــل إلى عمار إشبيليو الأخير؟

لهـــذه الأســـباب مجتمعـــة، ولكـــي لا يضـــيع القـــارئ في متاهـــة البحـــث عـــن المؤلف، قررت أن أدعي تأليف الرواية، وأضع اسمي على غلافها.

أحمد رودميرو

...بودي أن أتحدث لك أيضا عن الدكتور رودميرو، أحمد رودميرو، شخصية جذابة، ستعجبك كثيرا، إسباني كاثوليكي، تعرف على الإسلام منذ عشرين عاما، ثم أسلم، في الأصل كان من سلامنكا القريبة من البرتغال، لكن أصوله موريسكية، على ما أظن من إشبيلية، جنوب الأندلس...

قالت له أمه حين رأته يقوم بحركات غريبة كأنها رأتها من قبل: أمادو ماذا تفعل؟ وكان هذا اسمه الإسباني.

-أصلي ماما، أصلي المغرب. تحدث لها من قبل عن عودته لدين الموريسكيين، قال أموراً كثيرة لم تفهم أغلبها، لكنها تحب أمادو، ابنها الوحيد، والحركات التي رأته يؤديها ظنّتها أوّل الأمر نوعا من الرياضة، لكن نقاط ضوء صغيرة تلامعت في ذاكرتها من بعيد فسألته: أمادو ماذا تفعل؟..

ثم قال لها: ماما أرجوك سميني أحمد وليس أمادو، بليس ماما.

-أوه أمادو.. كنت وأنا صغيرة متعلقة بجدك، أحبّه جدا أمادو، ولم أكن أفارقه، حتى إنّني كنت أترك أبي ليلاً لأنام في حضنه وأعبث بلحيته البيضاء المشذبة، كنت أتبعه أينما ذهب، ولم يكن ذاك يضايقه إلا عندما ينزل إلى القبو، كان يتخلص مني برفق ويغلق الباب خلفه، لكني إذا

عرفت أنّه في القبو، لم أكن أفارق الباب وكنت أبذل جهدي لأقف على أطراف أصابعي كي أراه من شق المفتاح، وحين نجحت لأول مرة، رأيته وسط الشق الصغير تماما، رجل كبير كجدي في شق المفتاح الصغير، حير هذا الأمر عقلي آنذاك، وما حيرني أيضا الحركات الغريبة التي كان يؤديها وعيناه دامعتان، أمادو ما كان جدك يقوم به من قيام وانحناء وقعود، يشبه ما فعلته قبل قليل، كان يلصق جبهته بالأرض أيضا، ويبكي، يا إلهي هذا يعني أنّه كان يصلي المغرب أيضا.

-صديقي هذا ما حكاه لي الدكتور رودمير نفسه، شخص لطيف أتمنى لقاءك به، يبدع الشعر والقصص وعازف كيتار، كان مولعا بالموسيقى أكثر، ومولعا بالتجريب في الأدب أيضا والبحث الدائم عن الجدة والغرابة في مؤلفاته، حتى قاده اهتمامه بالموشحات الأندلسية إلى أقصى أعماقه، أقصى أعماق القلب كما يعبر أحمد رودمير نفسه، حيث كان الإسلام مختبئا وخائفا من محاكم التفتيش، الحكاية طويلة صديقي، سأمدك بالمزيد، أعرف أنك متعطش، المهم أنّه أسلم مذ ذاك، أشهر إسلامه وحج إلى مكة المكرمة.

سنلتقي غدا بإذن الله، أعترف أني كسول في الكتابة من قبل والآن كسول في الطباعة أيضا، لذا سأختصر، ولولا أني أحبك أيّها الموريسكي الذي لم أره، لما أتعبت نفسي، أنت تثير محبتي، إلى لقاء آخر، عبر النت طبعا، وأعتذر عن كسلي.

عمّار إشبيليو

هذه إحدى رسائل عديدة كان- عمار إشبيليو - وهذا هو اسمه أرسلها لي بمبادرة منه. أدهشتني أولى رسائله، لا أدري لماذا خاطبني بالموريسكي، تفاصيل كثيرة يعرفها عني، بعضها يعود لأيام الطفولة، يعرف اسم مدرستي، مدرسة الأندلس الابتدائية للبنين، وموقعها بالتحديد ذكره لي، على ضفة شط العرب، قرب جامع الفضلي في الفاو يوم كانت عامرة بأهلها.

حتى إنّه ذكر الكوسج المحنط والمعلق قريبا من مكتب مدير مدرستنا، أدهشتني معرفته بهذه التفاصيل عني، لا أدري كيف عرفها، إلا أنني لم استغرب كثيرا تحدثه عن الكتب التي قرأتها عن تاريخ الأندلس وشعبها، مدجَنين وموارکة تحت سطوة قشتالة وأراغون وغيرها من الممالك الكاثوليكية الشمالية، من الواضح أنه عرف ذلك من دخولي للمواقع المهتمة بالشأن الأندلسي، ولهذا ظن -عمار إشبيليو- إني من أصول موريسكية جاءت إلى الخليج العربي والبصرة مع السفن البرتغالية أيّام الاحتلال الإسباني للبرتغال، قال إن الآلاف من الموارکة فعلوا هكذا، وأبحروا متخفين تحت قناع النصرانية إلى الهند والساحل الأفريقي وقد اكتشف الباحثون أنَّ مقابر العديد من القرى في أمريكا اللاتينية تتجه إلى القبلة.

وعــزز ظنــه قــائلا: ألم تســأل نفســك يومــا لمــاذا أدخلــك أبــوك في مدرســة اســمها الأنــدلس مــع أن مدرســة أخــرى كانــت أقــرب منهــا إلى داركــم؟ لا شكّ أن أباك كان موريسكيا مخلصا رحمه الله.

لا أدري إنْ كــان موضــوع بعــد المدرســة عــن بيتنــا صــحيحاً أم لا، لكنــي اســتغربت معرفتــه بهكــذا تفصــيل. وكــان رده أنّــه يتــابع كــل مهــتم بمأســاة شــعبه الأندلسي ـــ ويحــب أن يعــرف كــل شيء عنــه، وأضــاف: لم أنــت منــدهش؟ شــعب الأنــدلس أحبّــه يــا أخــي، أحــب الموريســكيين، رضــعت حــبهم وحكايــاتهم طــوال طفــولتي، لم يــترك أبي أي حكايــة أو حــدث يعرفــه إلا وقصــه عــلي ولا شيء أحــب إليّ مــن ســماعها، بــل لا حيــاة لي الآن مــن دون استرجاع تلك الحكايات وتنفسها.

هــذه الحكايــات تقطــر ألمــاً ومــرارة وإنســانية، وهــي التــي جمعتنــا معــا كصــديقين، أنــا والــدكتور رودمــيرو، حتــى إنّنــا بعــد تعارفنــا لا نكــاد نفــترق إلا لنلتقي ثانية.

مــع أنّ للــدكتور رودمــيرو- أو أمــادو كــما يحلــو لمواطنيــه الأســبان تســميته - انشــغالات كثــيرة، فهــو عضــو ناشــط في إحــدى المــنظمات المدافعــة عــن حقــوق الإنســان في مدريــد، وهــو وإنْ كــان مســتقلا إلا أنّــه شــارك في الحمــلات الانتخابيــة بقــوة لصــالح مرشــحين يعتقــد بقــربهم مــن توجهاتــه التــي تــتلخص بضرــورة تخلــص إســبانيا الملكيــة الديمقراطيــة مــن الظــلال الســوداء المخجلــة لعهــد الجنــرال فرانكــو وسياســات قشــتالة القديمــة ومــا

ارتكبته من مجازر وإبادات جماعية للشعب الأندلسي وللعديد من الشعوب في الأمريكيتين، وآسيا وإفريقيا كذلك، ويرى أنَّ الاعتذار الملكي من اليهود أمر جيد لو أنّه شمل غيرهم، خاصة وأنّ ما تعرضوا له أقل بكثير مما تجرعه الأندلسيون وهنود المايا والأزتيك والآخرون .

يصف الدكتور رودميرو ذاك الاعتذار بالبراغماتية السلبية التي تسيء لوطنه إسبانيا أكثر مما تنفع، باختصار صديقي، إنّ رودميرو يدعو إلى مجتمع متسامح متعدد الألوان والثقافات التي تتلاقى معا لرسم اللوحة الأروع لفنان إسبانيا العظيم، وهو الشعب الإسباني - كما يقول - بكل أطيافه وثقافاته المتلاقحة عبر التاريخ، وغالبا ما يقول لأصدقائه وتلاميذه وزائريه:

إنَّ مقولة فرانكو الشهيرة (في إسبانيا عليك أنْ تكون كاثوليكيا أو لا تكون أي شيء) باتت من الماضي وعلينا أن لا ندع لها أي حيز مهما كان صغيرا، لا في أفكارنا ولا أقوالنا ولا في أيّ من أفعالنا وسلوكنا مع بعضنا ومع الآخرين.

هل يكفيك هذا تعريفا بالدكتور أحمد رودميرو؟ أتركك اليوم، لأحدثك بعدها عن مخيمنا، انتظرني.

أول المخيم

قبل عام تقريبا – يقول عمار إشبيليو- وخلال أحد لقاءاتنا الطويلة المتكررة - كل يوم تقريبا - ولدت فكرة المخيم، من صاحبها أنا أم رودميرو؟ لا أدري، لكنه باشر بالسعي لتنفيذها في ذات اليوم وتحقق لنا نحن جماعة من المواركة الشباب ذاك الاجتماع الجميل، بعض الموريسكيات كن معنا وأيضا أساتذة وطلاب أسبان وقيل إن أديبا أرجنتينيا ومثقفين من أمريكا اللاتينية حضروا لعدة أيّام، كما تكرر حضور كاتب هولندي وزوجته...

اسمع صديقي، جلسات عديدة بصحبة الدكتور أحمد رودميرو سبقت انبثاق مشروع المخيم، لا أحلى منها غير أيام المخيم نفسها، جمعتنا هذه الجلسات لساعات، قرأت عليه بعض ما كتبت، كانت قصاصات سرد تتضمن ما يشبه الشعر...

حين قرأها سألني: شعر؟

قلت كوكتيل من الشعر والسرد وربما الرسم أيضا، من كل باقة وردة أو أكثر.

وأسمعته العديد منها..

أفرحني انشداده، لا تتصور كم فرحت وأنا أراه منشدا لما أقرأ وكان دامعا.

ورسمنا تلك الليلة- أول أيام 2009- بعد أربعة قرون من قرار الإبعاد الدامي، رسمنا برنامج المخيم، وكان حافلا وغريبا بمساراته..

المـطرودون إلى البحـر

المطـــرودون إلى البحـــر تســـحلهم إليهـــا، شـــمس فالنســـيا، تبقـــى مـــن ثيـــابهم، ســـيتماوج البحـــر.. ثمـــة وهـــران في الأفـــق، والطريـــق إليهـــا، ســـيغرق أيضـــا، خلفهم، في نهر الوادي الكبير – ربما – ستغرق الأندلس.

مخيّم المواركة

أقمنا مخيمنا الجوال في أماكن عدة، عسكرنا أولاً في غرناطة ثم أبعد قليلا على سفوح جبل البشرات وانتقلنا إلى ضواحي إشبيلية، جنوبها إلى جانب الطريق إلى قادس، وعلى ضفاف نهر شنيل عدة مرات، هنا وهناك، وتوقفنا - من دون أن نخيم - عند نهر حيدرة على مشارف غرناطة..

رغب بعضنا بالنزول تجاه المرية أو قرطاجنة لكن هذا لم يتحقق، أما المرة الأخيرة فقد كانت في غرناطة طبعا، وفي حي البيازين تحديدا، ثماني أو تسع مرات غيرنا مكان المخيم وكان تعبنا لذيذا، وقد أدركنا متأخرين أنّ الدكتور رودمير أراد لتنقلاتنا أن تحاكي حالات الطرد المختلفة، وللاقتراب أكثر من مشهد البحر، عبرنا بالقوارب نهر شنيل ونهر حيدرة وعمل الجميع بالمجاذيف، صدقني لقد تم إلقاء اثنين منا في الماء وهم في دهشة وغضب، لكن المخيم كله أدرك السرّ لهذا، قدر الكثير من المواركة أن يلقوا في البحر، هكذا علق أحدهم وانتشرت المشاعر المختلفة من ضحك وانشراح إلى وجوم وحزن واستحضار للمأساة، إحدى الموريسكيات كانت تبكي، اسمها على ما أتذكر "مارتينا" وكان اثنان من الضيوف أحدهما إسبانياً يقومان بتصويرها، بكت وسط أضواء الكاميرات، مشهد مؤثر فعلا، ليتك كنت معنا يا صديقي.

المخـــيم بشـــكله وتنقلاتـــه وطريقـــة توزيـــع الخيـــام القريبـــة إلى الفـــوضى والتشـــتت أريـــد لهـــا أن تحـــاكي عمليـــات الطـــرد الوحشـــية التـــي تعـــرض لهـــا شـــعب كامـــل بمختلـــف انتماءاتـــه وأطيافـــه، أمـــا الثيمـــة الأســـاس لفكـــرة المخـــيم فهـــي اجتماعاتنـــا أو حفلاتنـــا القصصـــية والتـــي ابتـــدأت بـــأن يطـــرح أيّ مشـــارك مـــا يعرفـــه مـــن حكايـــات المواركـــة بجمـــل مكثفـــة، كتلـــك التـــي تبادلتهـــا مـــع الـــدكتور رودمـــيرو، يمكـــن أن أســـميها قصاصـــات سرديـــة أو حبات قصصية..

أربعـــون حبـــة أو قَصاصـــة أو قُصيصـــة، لنقـــل أربعـــون جملـــة سرد مركـــزة وأزيـــد عرضـــت عـــلى المشـــاركين، ليقـــوم أحـــدهم أو أكثـــر بـــالانطلاق مـــن أي جملـــة والتوســـع فيهـــا ضـــمن آفـــاق الخيـــال المنتمـــي إلى واقـــع كـــان معيشـــاً، وبمعنى آخر، بسط الواقع الموريسكي المتخيل ورسم مشاهده.

وزعهـــا الـــدكتور رودمـــيرو عـــلى جميـــع الخيـــام بعـــد أن جمعهـــا منهـــا، وقـــال لهـــم ليختـــر كـــل منـــا جملـــة، جملتـــين، لا يهـــم، ولنعـــبر عنهـــا بحكايـــة ويمكـــن الاســـتعانة بأيّـــة وســـيلة إبداعيّـــة الشـــعر أو الرســـم وحتـــى الموســـيقى، الإبـــداع هو المبتغى وخصوبة الخيال..

إقـفـــال

القـــذارة عـــلى جسرـــ قرطبـــة،وحمامات الموريســـك التســـعمائة أغلقـــت.. ثبتـــي شـــمعك الأحمـــر جيـــدا يـــا قشـــتالة.. نســـاؤك وحـــدهن لـــن يغـــير الإغـــلاق، في أجسادهن حالا.

لا أدري إن كانـــــت هـــــذه البـــــذرة القصصـــــية لي أو للـــــدكتور رودمـــــيرو أو لآخـــر مـــن رواد المخـــيم.. ينبغـــي أن تتـــذكر أننـــا جميعـــا شـــاركنا في إعـــداد وكتابـــة هـــذه الجمـــل المكثفـــة، لقـــد اشـــتركنا حتـــى في كتابـــة الجملـــة الواحـــدة، كلمة من هذا أو ذاك، حتى نستقر على الصياغة الأخيرة لها.

أحد الشباب علق على جملة (إقفال) لكن باختصار:

فـــرح

بعـــد ســـلامة الوصـــول إلى الـــبر المغـــربي نقطـــة الفـــرح الوحيـــدة للموريســـكيات الجمـــيلات هـــي حمـــام بعيـــد – عـــن الأنظـــار– ليغســـلن أدران قشـــتالة ولـــو بـــماء البحر..

نحـــن وزعنـــا القصاصـــات– آميكـــو– أو الجمـــل المكثفـــة عـــلى الجميـــع، مـــع أننـــا جميعنـــا شـــارك في إبـــداعها وحـــول القصاصـــة كتبـــت تعليقـــات عـــدة، أذكـــر لك منها ما كتبه مشارك آخر بعنوان:

ختم

على شمع الباب الخشبيةكان الختم بهيئة المسيح المصلوب كانت الأقفال أكبر.. حين تمر المورسكيات – بباب الحمام - يتلفعن جيدا بعباءاتهن، ولا يتذكرن.. سوى انتعاشة الماء، وغير خوابي الحنة.

أما المشاركة السردية الأولى فكانت من الخيمة الثامنة التي تضم خمسة أشخاص أصولهم من مدن متقاربة، تيرويل وكوينكا، وثلاثة من فالنسيا، وهي ميناء على المتوسط.

كانت مشاركتهم قصيرة وأحداثها مختزلة حين نشروها أول مرة، لكنهم عادوا مرارا لتطويرها، واشترطوا أنْ تنشر بنسختها الأخيرة وليس مجزأة كما هو الأصل، وهذا وإن جرى خلاف برنامج المخيم، لكن الإدارة اضطرت للموافقة بعد أن استطلعت آراء الجميع، بما فيهم الضيوف والزائرين.

تجربة الاستطلاع كانت ممتعة، وكانت مشاركتهم بعنوان "بستان الحرير"

قال أحد الضيوف وكان شاعرا أرجنتينيا اسمه خوليو سوريس:

إن الأقفال، وهو عنوان القصاصة السردية، تثير عند القارئ انثيالات شتى، منها السجن والمطاردة ومصادرة الحريات وتكميم الأفواه ومنها أنها تعني هنا، القبض على الحمّامات وإلقاءها في السجن، تخيل حمامات

بأبنيتهـــا ومغاطســـها وروادهـــا ملقـــاة داخـــل الزنـــازين، تخيـــل ذلـــك، هـــذه قـــراءتي كشـــاعر، أمـــا كلمـــة الحريـــر فقـــد أسرَّ في أذني صـــديقي أمـــادو (يقصـــد الـــدكتور أحمـــد رودمـــيرو (أنّ حروفهـــا وصـــوتياتها قريبـــة مـــن كلمـــة حريـــة بـــالعربي، وهـــذا يؤيـــد قـــراءتي، أنّ بســـتان الحريـــر وفقـــا للعربيـــة يعنـــي بصـــورة مـــا الســـعي للتحـــرر مـــن الأقفـــال بصـــناعتها القشـــتالية الثقيلـــة عـــلى القلـــب والمتقنة..

بســـتان الحريـــر – آميكـــو- هـــو عنـــوان لمـــا نشـــرته الخيمـــة الثامنـــة انطلاقـــا مـــن جملة "أقفال".

بستان الحرير

أراد مارتينو أنْ يجيد التقشتل ويتقنه مرتعبا من مصير حل بأبيه على يد رجال محكمة التفتيش في إشبيلية، فخرج إلى قرطبة ومنها إلى فالنسيا مبتعدا عن كل معارفه الموريسك، واستقر بها مستعينا بما يملك لشراء بيت وبستان حرير ليس بعيدا عنه.

وهناك بالغ الموريسكي مارتينو بإظهار نصرانيته، أغلب أصدقائه قشتاليون، كما أنّه بدا قشتاليا أكثر من القشتاليين أنفسهم، لا يتحدث إلا بالقشتالية ويضمن كلامه ازدراءً وتجريحا لكل ما هو موريسكي وغير كاثوليكي، كان مواظبا كل أحد على الذهاب للصلاة في الكنيسة، وحرص دائما على الظهور العلني في الأسواق أيّام الجمعة وخلال أعياد المسلمين المعروفة لئلا يتهم بالصلاة سرا في بيته كما هي تهمة كل موريسكي لا يأكل لحم الخنزير أو يتغيب عن الكنيسة، بيده نقش مارتينو علامة الصليب على قمصانه، ثم مثل دور الحب مع شقراء يبدو أنّ دم الفايكنغ المجوس يلوح في قسماتها المتوحشة، فعلا كانت جميلة بشقرتها وملامحها الجرمانية - كما تقول الحكاية - وقد انخدعت به، كان شابا أسمر فارعا ووسيما، ملامحه تشي بالقوة والرجولة، لكنه بعد أن أوقعها بشباكه لم يدم تمثيله معها طويلا، إذْ وفي أوّل خلوة لهما لم يستطع تحمل قربها ولا قبلاتها، سليلة الفايكنغ تلك لا يرى الماء جسدها، لم يطق رائحتها، والنهر حيث تستحم القشتاليات أحيانا بعيد

عــن بيتهــا، وقبــل أن يعــود زوجهــا مــن البحــر تــوارى صــاحبنا الموريســكي وتهرب من إلحاحها.

آميكــو، صــديقي، أكــاد أرى اســتمتاعك بــما تقــرأ، تأمــل هــامش - أروى- وهــي معلمــة مــن تــونس، أصــولها مــن بلنســية، لكنهــا مــن خيمــة قرطاجنــة، انظر هامشها:

نهايات

لم تــذكروا خاتمــة الحكايــة يــا إخــوة، لا شــكّ أنّهــا مؤلمــة، هــل مــر انســحاب الموريســكي مــن صــاحبته بــلا عقــاب؟ لا أظــنّ، خاصــة في ظــروف كتلــك، الغلبــة فيهــا للمــرأة، والانتقــام لهــا متــاح، ومــع أنّ النهايــة كــما ذكــرتم محتملــة، لكني أرسم أكثر من نهاية مختلفة للقصة..

نهاية 1

في الأيّــام الأولى مــرّ الحــادث بســلام، بيــنما كانــت الشــقراء تبحــث عنــه، فقــد أدركــت أنّــه تركهــا متعمــدا وتعلــق بــأخرى أجمــل منهــا، فظلــت تتقصى أخبــاره وســعت للانتقــام منــه، لكــن مــارتينو كــان قــد اختفــى عــن الأنظــار وهــو ينــوي - كــما توقعــت الشــقراء - أنْ يــرتبط بقشــتالية غيرهــا ليــذوب أكثــر في المجتمــع الكــاثوليكي ويبعــد عنــه شــبح المحــاكم، يقــال إنّــه ظــل يحلــم بهــذا حتــى بعــد خمــس ســنوات مــن الحكــم عليــه بالعمــل ســخرة عــلى ســفن الأسطول الإسباني.

"لا شكّ أنّ مارتينو وهو يحلم لم يكن يشعر بسياط البحارة الإسبان تلهب ظهره العاري خلال التجذيف"

هذه تعليقة ليست لأروى لكن صاحبها لم يكتب اسمه.

نهاية 2

إنّ الجميلة الشقراء وبحسّ الأنوثة المرهف لاحظت اشمئزازه منها فشكته لزوجها أو أبيها العامل في ديوان محكمة التفتيش مدعية أنه يتحرش بها، ولهذا قبض عليه والتحق صاحبنا بأبيه، لم يعلم مارتينو بالشكوى، فقد داهمه الجنود ليلا ودفعوا الكمثرى الخشبية في فمه لئلا يصرخ، وبين السحل والضرب، رموه في حوض عربتهم ومضوا، ومنذ ذاك، لم تر الشقراء مارتينو ولم يسمع بأخباره أحد..

هناك شائعات تقول إنّ وكيل الكاردينال زمنيز قضى بأن يزف مارتينو إلى السيدة العذراء الجميلة في تابوتها المرعب، وهناك في حفل الزفاف الرهيب انغرزت المسامير من كل صوب ومزقت جسده وبقي ينزف، قطرات قطرات حتى استراح، وكانت الكمثرى لم تزل تغلق فمه الدامي.

نهاية 3

إنّ زوجها البحار تجاهل شكواها أولاً، لكنه بعد أنْ علم أنّ المتحرش موريسكي، استغل الأمر للاستيلاء على كل ما يملكه مارتينو، أي داره وبستانه الذي يضم 400شجرة توت والآلاف من دودة الحرير..

ومع أنَّ مارتينو المسكين تنازل عن أملاكه إلا أنّ الناس في فالنسيا تجمعوا بعد أسبوع ليشهدوا حفل إحراقه حيا لهرطقته وارتداده عن الدين.

وبينما كانت هذه الحكاية تعرض على الخيمة الرابعة، خيمة الجزيرة الخضراء وفيها لاجئ سياسي من العراق وثلاثة مغاربة، أضيفت هذه الخاتمة الموحية بتهكمها ومرارتها..

نهاية 4 (لشمُرشكُش)

في أول عناق ملتهب صدمت رائحتها الزنخة مدمن الحمامات هذا فانكمش وافتضح أمامها.. لم تحتمل الجرمانية الإهانة فشتمته بالقشتالية:

-كافر لُشمُرشكش، ورفعت يدها بوجهه، لكنه وهو الأندلسي صفعها مرارا إلى أن توزعت جسده سيوف الجنود الثلاثة الذين هبوا لنجدتها، لقد نجا الموريسكي من المحرقة .. مبروك.

حكايــة إغــلاق حمامــات قرطبــة جــذب اهــتمام الخيــام كلّهــا، ســأروي لــك حكايات أجمل، انتظرني ..محبتي

عمّـار إشبيـليـو

أهــلا صــديقي الســلام علــيكم، حكايــة حلــوة هــذه أو مــرة، لا أدري، أنــت تقــدر، اقرأهــا، هــم في خيمــة إشــبيلية، الخيمــة السادســة، أعــادوا كتابــة القصيصة أو جملة السرد، أعادوا صياغتها وقدموا نصين مختلفين قليلا:

صياغة أولى

" القذارة على جسر قرطبة

وحمامات الموريسك، لا حيطان لها..

داكنة أرديتك قشتالة

ونسوتك، لم لا يغتسلن؟ "

صياغة ثانية

"أخرجي حمامات الموريسك،

من توابيتك،

وجسر قرطبة أيضا،

أرديتك داكنة قشتالة،

فأبدليها بألوان الأندلس،

وعودي فتياتك على الاغتسال"

ثم أضافوا حكايتهم الجميلة التي تلاقفها المخيم بسرعة وابتهاج، وكانت بعنوان:

مايوركا

اسمه الأندلسي كريم، يتهامس به الموريسكيون سرا فيما بينهم، أما كاسياس فهو الاسم الذي عمدوه به في الكنيسة الكاثوليكية..

كريم كاسياس لم يكن في قرطبة عام 1567 حين أصدر ملك إسبانيا فيليب الثاني قراره بإغلاق حمامات المواركة، لأنهم كما تقول الكنيسة المقدسة يستخدمونها للوضوء والصلاة المحمدية سرا، في قشتالة وغيرها من ممالك إيبريا لا أحد يبني الحمامات العمومية أو يرتادها غير الموريسكيين، كان الشماليون كلما تراكمت القذارة واضطروا للاستحمام فإنّ مياه البرك والجداول تكفي، لم يعرفوا الصابون ولا المناشف المنسوجة من القطن ولا الدلاكات، هذا فقط، من شؤون المواركة..

كان كريم كاسياس في إشبيلية، نما وهو يرى أباه ينقل الحطب إلى الحمامات شتاءً، أما في أوقات الحر وانتفاء الحاجة للحطب، فإنّ بعض

أصحاب الحمامات يستخدمونه لتقديم الشرابات للزبائن كنوع من المساعدة له، وكان كريم بعد أن شب وتولى العمل بدلا عن أبيه يشعر بالحرج من هذا، فبدأ بتعلم صناعة الدمى وبيعها في الوقت المخصص للسيدات الموريسكيات اللواتي كن يصطحبن أطفالهن للاستحمام، لم يكن ما يربحه كافيا في الصيف، لكن ما يكسبه وقت البرد من نقل الحطب وبيعه لحمام السيدة قمرين أكثر من حاجته، قمرين هذه كانت تعطيه أجورا مجزية، وكانت تكلفه أيضا بالاعتناء بأقنان حمائمها على سطح الحمّام، وكان الاهتمام بالطيور يريحه، طالما ألح وهو صغير على والده أن يشتري له حمامات بيض ليربيها ويلهو بها، لكن أباه كان يرفض ويقنعه بشراء حاجيات أخرى أو لعب، ويتهرب من إجابة طلبه..

كان توريده للحطب مقتصرا على حمام السيدة قمرين ولم يكن يتعامل مع غيرها من أصحاب الحمامات في إشبيلية وهم كثيرون، وكان يتهرب من الإجابة إذا سأله أحدهم عن سبب تمسكه بالعمل في حمام قمرين فقط، وكان يقضي أغلب أوقات فراغه إذا كان وقت الاغتسال مخصصا للرجال بالتواجد على السطح مع الطيور، أما في الصيف فقد كان يكتفي بنحت الدمى وبيعها، لكن قرار الإغلاق الملكي طبق بسرعة وقوة، ليس في قرطبة فقط، بل في كل مناطق قشتالة، حتى إنّهم عندما اقتحموا حمام قمرين كان كريم كاسياس يقوم بإنزال حمولة الحطب فتناوشوه بالركلات وأخذوا حمارته مايوركا، هكذا يسميها، ولم

يعيدوها إليه، سيراها بعد شهر وهم يحثونها بالسياط، هزلت كثيرا مايوركا وكان يتألم لحالها، ونسي ولعه بالحمائم حزنا عليها، حتى إنّه وبعد أن غدت صناعة الدمى مهنته الوحيدة، نحت دمية جميلة على شكل حمارته أولا، ثم بعد عدة تجارب أخذت الدمية من دون أن يقصد شكل ظبية وادعة وجميلة، نحتها من أغصان الزيتون الطرية وسماها مايوركا تعاطفا مع حمارته، وبعد أيام قلائل من شروعه ببيع نماذج من دميته اشتهرت وذاع صيتها بين الأطفال وراجت مبيعاته، ولما ازداد عدد زبائنه حاول أن ينحتها من أخشاب أخرى غير الزيتون للعجلة وكثرة الطلبات فلم يقدر، لم تطاوعه أنامله ولا أزاميله، ارتبطت مايوركا بأغصان الزيتون الطرية وارتبط شكلها الجميل بخضرتها الخفيفة وباسمها، مايوركا..

كان يصبّغها بالحناء التي رخصت كثيرا وتوفرت بعد منع الموريسكيات من التزين بها، ويحلي عنقها بقلادة خرز ملون واستخدم صمغ الأشجار ليلصق على رأسها عصابة محلاة بالأزهار، كما تفعل الأندلسيات عادة، كما جعل لكل مايوركا يدين بعشرة أصابع ناعمات، ونحت لها قدمين ورديتين وليس أظلافا، وثمة خاتم أو أكثر في يد كل دمية، كانت الخواتم مزينة بفصوص من الأحجار والزجاج الملون، وأجمل ما يجذب النظر إلى المايوركات، أنظار الرجال والنساء معا، هو الخال الأسود اللماع المنقوش على خد كل مايوركا، فكان مع جفونها المدهونة بصبغة يتراوح لونها ما بين الزرقة والبياض، كلون الفضة تقريبا، يظهر

المايوركا وكأنها عروس موريسكية أنهت للتو حمامها استعدادا للزفاف، وكان كريم يُلبس المايوركا خمارا شفافا وجلبابا طويلا ليستعيد ما كانت النسوة في الأندلس يرتدينَ من زي إسلامي وما يتزينَّ به من حلي وأصباغ قبل أن تطبق قرارات المنع الأخيرة لفيليب الثاني، لكنه كان يحرص على إظهار مهاراته بعرض بعض المايوركات وهن سافرات ليستمتع المارة بجمال صناعته، ويجمل الباقيات كالأندلسيات تماما بالخمار والعباءة والسراويل الطويلة الزاهية، فيثرن الإعجاب وفضول الناظر أكثر..

مارانوش

ثلاثة من أطفال الموريسك كانوا فرحين بشراء أحدهم مايوركا، أثار فرحهم عطف كريم كاسياس فأعطاهم واحدة أخرى مجانا، تقافز الصغار مبتهجين وتضاحكوا، ويبدو أنهم لم يستطيعوا الصبر حتى يصلوا إلى دارهم، فأخذوا جانب الدرب بعد قليل وباشروا اللعب وتقليب الدميتين بدهشة الطفولة والبراءة تشع من وجوههم، في ذات الوقت كانت امرأة ترتدي زيّاً أراغونيا تمر قريبا منهم وهي تمسك بيد ابنتها الصغيرة التي ما إن رأت المايوركا حتى انفلتت من أمّها وركضت تجاه الأطفال وتبعتها أمها تهرول خلفها، هذا المنظر للمرأة وهي تركض وتتعثر وللطفلة وهي تتعارك وتحاول بيأس أنْ تأخذ الدمية من يد الصغير القوية، هذا المنظر أثار ضحك مجموعة من الجنود كانوا واقفين قرب أحد الرهبان الدومينيك، كانت الأم تحاول منع ابنتها من العراك والجنود يضحكون حين همس لهم مارانوشي قريب منهم:

هؤلاء الصغار الملاعين من الموريسكوس سادتي.

وهنا تغير كلّ شيء، توقف الضحك، وقطب الراهب جبينه، تحرك الجنود وضربوا الأطفال فهربوا مذعورين، ثم توقفوا على مبعدة، ليروا مصير المايوركا التي انتزعت منهم وأعطيت للبنت، أما المايوركا الأخرى فقد ترافست بها أحذية الجنود وقهقهاتهم حتى تحطمت..

لم يكـــن يســـتطيع التـــدخل، كـــان كاســـياس يـــرى الأطفـــال ويـــرى حبيبتـــه المايوركـــا وقلبـــه يعتصـــر، ومنـــذ تلـــك الحادثـــة لم يعـــد كـــريم يســـمي نفســـه كاســـياس، ولم يعـــد لنحـــت أغصـــان الزيتـــون، لقـــد اعتكـــف في بيتـــه زمنـــا، ثـــم - كـــما يقـــول بعـــض المواركـــة- خـــرج إلى الأحـــراج المحيطـــة بإشـــبيلية وهـــو يتأبط سيفا صنعه بمطرقته.

"قيل إنّ هذا سبب توقف كريم عن نحت دميته المحبّبة " .

أكاديميـــة موريســـكية وزميلـــة لهـــا مـــن بلبـــاو كانتـــا في خيمـــة اســـمها، خيمـــة الزهـــراء، ربـــما حملـــت هـــذا الاســـم اعتـــزازا بقصـــر الزهـــراء أو لأنّ الموريســـكية كان اسمها زهراء، هذه الخيمة رسمت نهاية مؤلمة لكريم..

المغـارة

تـــرك نحـــت المايوركـــات وخـــرج بســـلاحه إلى الأحـــراج الكثيفـــة وإلى الجبـــال، ومـــن هنـــاك كـــان يـــتربص بـــدوريات الجنـــود القشـــتاليين ويصـــطاد مـــن ينفـــرد مـــنهم عـــن جماعتـــه، وقيـــل إنّـــه كـــان يكتـــب عـــلى جســـد كـــل قتيـــل كلمـــة مايوركـــا بحـــروف الخميـــادو التـــي لا يعـــرف الكتابـــة بغيرهـــا، حتـــى ضـــجت إشـــبيلية بـــما يفعـــل وكانـــت الأمهـــات القشـــتاليات ينـــومن أطفـــالهن وهـــن يخـــوفنهم بكـــريم كاســـياس، أو كاســـياس مايوركـــا، ويقـــال إنّ المـــارانوشي ذاتـــه الـــذي وشـــى بالأطفـــال هـــو مـــن تـــرجم للســـلطات معنـــى الكلمـــة الموشـــومة عـــلى أجســـاد القـــتلى، وهكـــذا غـــدا كـــريم كاســـياس مطلوبـــاً، فاســـتنفرت دوريـــات عديـــدة حتـــى تمكنـــوا أخـــيرا مـــن محاصرتـــه في مغـــارة صـــغيرة لكـــنهم عجـــزوا عـــن الـــدخول عليـــه لضـــيق فتحـــة المغـــارة ولأنـــه كـــان يقتـــل كـــل مـــن يقـــترب منـــه، فعمـــدوا إلى تكـــويم الأغصـــان اليابســـة في بـــاب المغـــارة وأشـــعلوها فكـــاد أنْ يختنـــق واضـــطر للخـــروج علـــيهم بســـيفه، لم يتمكنـــوا مـــن أسره كـــي يحـــرق حيـــا كـــما هـــي الأوامـــر، وهكـــذا ســـحلوه قتـــيلا إلى إشـــبيلية وعـــلى الطريـــق كانـــت الأعشـــاب الطريـــة تصـــطبغ بدمـــه، كأنهـــا تتحنـــى بـــه كـــما تفعـــل الموريســـكيات، وأحرقـــت جثتـــه ومنـــذ ذاك لم يســـمح لأيّ طفل أن يلهو بالمايوركا..

"أشـــارت ملاحظـــة مـــن خيمـــة الزهـــراء أنّ لهـــذه المســـاهمة صـــلة بالجملـــة القصصية التالية "

أغلقوا المغارة عليهم بالنار والدخان سمع الجنود سعالهم والصراخ فتضاحكوا وفجأة، انفلتت راكضة، أم شابة ورضيعها لكنهم في الخارج، وكانوا يرقصون..قطعوهما بسيوفهم.

ما أقول لك صديقي، هكذا هي حكايات الموريسك، هل هي جميعا محزنة؟ لا أدري..

ولا أظن أن أحداً يدري، أرجوك اقرأ هذه الجملة القصصية قبل أن أذكر لك نهاية أخرى لكريم كاسياس، نهاية اقترحتها خيمة البشرات.

"عندما اختطف القشتاليون الأربعة ابنته طاردهم بخنجره، ثمة خيول اندفعت، أربعة عشر ربيعا يا إلهي وكان قتيلا حين رآها إلى الأبد".

تقول خيمة البشرات:

هناك من يقول إنّ اختطاف هذه الفتاة الصغيرة من يد أبيها، ثم قتله بوحشية وفرح، أمام ابنته وأمام الناس علناً، هو الذي دفع كاسياس للتوقف عن نحت المايوركات والصعود إلى الجبال، لكنا لا نملك وثائق تؤيد هذا الخبر، وما نحن واثقون منه، أنَّ ما حدث للأطفال مع الجنود والمرأة الأراغونية لم يكن هو سبب توقف كريم عن نحت المايوركات والاختفاء، هذه الحادثة وقعت فعلاً، كما تذكر مخطوطة تنسب إلى حامد بن قمرين الأديب الأندلسي البارع، لكن المخطوطة ذاتها في موضع آخر، قبل نهايتها بأربع صفحات، تقول:

قبل ساعة من غروب يوم حار من أيام يوليو، كان كريم كاسياس يلملم بسطته فقد نفذت كل المايوركات التي نحتها اليوم، حينها وقفت على رأسه فتاة جميلة في سنّ المراهقة يبدو عليها أنّها من بنات النبلاء أو رجال الدولة، وكانت تمتطي فرسا، وأحد العبيد من الموريسكوس المحكوم عليهم بالرق، كان يمسك بلجام الفرس، قالت لكريم بتعال وغرور:

-أنت موريسكوس، ما اسمك؟

"لم يرتح لأسلوبها"

-كاسياس سيدتي.

-اسمك الكامل؟

-كاسياس رودميرو سيدتي.

-أين مايوركاتك، لا أراها؟

-نفذت سيدتي.

-اسمع، اصنع لي مايوركا جميلة جدا، أحلى واحدة، اجعلها تشبهني، هل أنا جميلة موريسكوس؟

-جميلة جدا سيدتي.

-أنا أجمل أم مايوركاتك هذه؟

-بالطبع أنت أجمل سيدتي.

"وتصاعدت دقات قلب كريم ، ما تريد منه؟ دعا الله أن ينقذه من شرها وتغير لونه".

-ما بك؟ هل أنت خائف أم بهرك جمالي؟ قل.

-أنت جميلة سيدتي قلت لك، فقط أنا مرتبك لتكرمك بالوقوف عند بسطتي المتواضعة هذه.

-إذن اصنع غدا مايوركا مثلي، ولا تبع أي واحدة للموريسكوس، مفهوم؟

-مايوركا مثلك؟ "هنا تغيرت لهجة كريم قليلاً ولم يخاطبها بسيدتي" ولكني لا أعرف نحت غير هذه المايوركا، ولا يستطيع أحد غيري نحت أجمل منها.

"اندهشت الفتاة من تغير لهجته وغضبت"

-موريسكوس، حقير، قل سيدتي، ورفعت سوطها في الهواء.

فتفاداه كريم وصرخ بوجهها..

-أنت وأجدادك الحقراء، الموريسك هم الذين علموك كيف ترتدين ثيابك يا بنت البرابرة، بصق تجاهها وغاب عن الأنظار..

"علق بن قمرين في ذيل الخبر أن كريماً أراد تأديبها، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة لأنها امرأة"

وأضافت الخيمة ذاتها - بعد ساعة - تتمة للحكاية..

تألم كريم كثيرا لما حل بالعبد الموريسكي الذي كان يقود فرس الفتاة، إذ عذبوه بالدواليب الدوارة ليدلهم على اسم كريم ومكانه وهو يصرخ ويقسم، لا أعرف، توسل إليهم بالسيدة العذراء وبالطفل المسيح، لكن لا أحد يصغي، شدوا يديه وقدميه إلى أربعة دواليب، كل دولاب يسحبه إلى جهة وشدوه، حتى أغمي على المسكين وتمزق جسده قطعا أربعاً..

لهذا خرج كريم إلى الأحراج المحيطة بإشبيلية زمنا، ثم شارك في ثورة الأندلسيين بعد عام من قرار فيليب بإغلاق الحمامات، كان قائدا شجاعا وقتل خلال معركة في جبل البشرات قريبا من غرناطة، وثمة زيتونة معمرة ما زالت إلى الآن تظلل المكان الذي دفن فيه، وإلى الآن المزارعون الإسبان يتبركون بهذه الزيتونة الوارفة ويسمونها مايوركا من دون أن يعرفوا سبب التسمية.

وعلقت الخيمة: إنّ غرناطة أحقّ من غيرها بكريم وستثبت هذا بحكاية أخرى.

لكن خيمة إشبيلية لم تتقبل ما ذكرته خيمة البشرات وادعاءَهم بكريم ووزعت هامشها:

ما ورد في النهاية المقترحة للحكاية من خيمة البشرات أثار دهشتنا لأنّه تضمن خطأ فنيا واضحا يظهر منه أنّ الخاتمة كانت مختلقة، لأنّ كريماً أعلم المراهقة القشتالية باسمه: كاسياس، فلماذا يسأل المحققون عن اسمه؟ كما أنه معروف، فهو الوحيد الذي كان يبدع نحت المايوركات ويبيعها، ووقتها لم يبدأ أحد بتقليده، هذا حصل بعد وقت طويل وكان الناس يميزون بسهولة بين مايوركات كاسياس الأصلية كما يسمونها وبين النسخ المزورة للآخرين، فلماذا يحتاجون لتعذيب العبد الموريسكي؟

إنّ الثابت لدينا أنّ حامداً ابن قمرين أديبنا المبدع ذكر أنهم عذبوا الموريسكي المستعبد، بتهمة التواطؤ مع كريم كاسياس على إهانة القشتالية، لكنهم لم يقتلوه، بل عوضوا السيد المالك له بموريسكي آخر وأرسلوا هذا مقيدا إلى برشلونة للعمل مدى الحياة على السفن الملكية في الأرمادا..

وقالت السيدة المخولة للتحدث باسم خيمة إشبيلية: إنَّ لدينا ما يؤكد أنّ كريماً بقي مرابطا قريبا من إشبيلية حتى استشهد رحمه الله، وسننشر هذا قريبا.

لم نكن نتوقع، لا الدكتور أحمد رودميرو ولا أنا، أنْ يتشعب السرد بهذه الطريقة، وقال رودميرو غامزا (كأنه هو من رتب ما يجري) ألا يذكرك تنافسهم بهذا الشكل بملوك الطوائف وصراعاتهم حتى استعانوا بالشماليين على بعضهم؟

سيحاصرنا الوقت إذا استمرت حكاية كريم ومايوركا بهذه الطريقة، وسنعجز عن تناول الأقصوصات الأخرى وهي كثيرة، لكنه استرسال سردي مدهش شدنا وانجذب الجميع إلى متعاته.

أراسلك غدا إن شاء الله، أشعر بالإرهاق، للتذكير فقط، وعدت خيمتا "البشرات وإشبيلية" بإضافات موضحة لوقائع الحكاية، حكاية المايوركا. وفوق هذا ستقدم خيمة إشبيلية، حكاية جديدة وجميلة كما يقولون ..محبتي

بعد يومين أرسل - عمار إشبيليو- لي حكاية أصدرتها خيمة غرناطة تأييدا لادعاء البشرات بكريم كاسياس، وذيل رسالته بسلام حار ووعد بالمزيد من المتعة في الآتيات من رسائله:

زيت زاكاو

كاسياس الموريسكي لم يكن من أهل إشبيلية في الأصل، ولم يكن اسمه كريم أو كاسياس وإنما اسمه الأندلسي ـ زكي، وبالقشتالية سمي زاكاو، وكان الابن الرابع لمهدي أحد ملاكي مزارع الزيتون في غرناطة الذي سمته الكنيسة الكاثوليكية، غارسيا، وقد مات اثنان من أبناء مهدي بسبب المرض، لكن الأكبر منهم، صالح أو سولينو هو من قتل على يد القشتاليين بعد أن دافع عن امرأة موريسكية حاول الجنود التحرش بها وهي في بيتها، كانت جارة لهم، وكانت الأوامر الملكية تقضي ـ أن تبقى أبواب الموريسكيين ونوافذهم مفتوحة دائما كي لا يصلوا أو يقرأوا القرآن، فاستغل الجنود الأمر ودخلوا بيتها بذريعة التفتيش، ولما كانت وقتها وحيدة تحرشوا بها فصرخت بهم وعلا صراخها، ومن دون تردد اندفع صالح إلى بيت جارته وأدمى رؤوسهم بخشبة تسلح بها قبل أن يتكاثروا عليه ويقتلوه..

خلال أسبوع قضت محكمة الكاثوليك بأن يرسل الأب للسخرة في مزارع الملك في سانتا ياغو، على ساحل الأطلسي ـ، ومن حينها لم يعد إلى غرناطة أبداً، كما صادروا كل مزارعه ومعصرة الزيت التي يملكها، أيامها كان زاكاو في أوائل شبابه، ولكي يعيل أمّه العجوز المنهكة عمل حطابا لعدة أعوام، كان في العشرين من عمره أو أزيد حين حمل الحطب على حمارته لبيعه كما يفعل كل يوم تقريبا، وجلب معه دورقا وفي نيته أن

يشـــتري بـــثمن الحطـــب زيتـــا للطعـــام أو الإضـــاءة، في الطريـــق إلى ســـوق القيصرـــية، نـــاداه أحـــد الخـــدم واشـــترى منـــه الحطـــب لكنـــه دعـــاه ليتبعـــه قلـــيلا إلى قصر سيده كي يعطيه نقوده..

حمّام قمرين

مما كتبه لزوجته:

قرّبت كرسيي من الشباك، واجهة الحمام قبالتي، تأملتها كعادتي كل يوم دون أنْ أمل، أفعل هذا منذ أنْ جئت إلى إشبيلية متاجرا بالتيل الهولندي والحرير اللازم لأردية النبلاء والقساوسة، أحمل اسما إيطالياً، كولاني، وادعيت التدين الكاثوليكي، عزيزتي ديانا مع تلهفي للعودة وشدة اشتياقي لأحضانك ولأنفاس كريستينا الحلوة، إلا أنّني - لا أخفي عليك - مشدود إلى الحياة هنا، هذه التفاصيل السرية لحياة الناس هنا، والتي استطعت ملاحظتها، قسوة جنود الملك ورجال الكنيسة الكاثوليك الذين يتحكمون بكل شيء وفظاظتهم مقابل أمارات الخوف والقلق التي تسم نظرات وملامح أغلب من أراهم هنا، حتى النصارى القدامى، أما الموريسكوس، فحالهم الأسوأ، انجذبت روحي إليهم، أناس ضعفاء وطيبون، مع قلقهم الواضح على كل سلوكياتهم فإنَّ البشاشة واللطافة سمتهم الأولى، كرماء جدا، ورأيت منهم في مواقف عدة وهم يساقون إلى الموت وإلى التعذيب في ديوان التفتيش المقدس شجاعة مدهشة لم أتوقعها..

وبعد أشهر من إقامتي في قشتالة وليون وأراغون، عرفت أنَّ السبب الخفي لما يحل بهم هو ذكاؤهم ونشاطهم الذي يجعلهم أغنياء بعد كل مصادرة لأموالهم، مما يعرضهم في كل مرة لمكائد الجشعين من رجال

الدولة أو الكنيسة، أمّا السبب الأهم المعلن فهو إصرارهم على التمسك بزيهم وعاداتهم وتجنبهم أكل لحم الخنزير أو تناول الخمور، والقبض عليهم متلبسين بالصلاة أو التطلع لرؤية الهلال، ديانا حبيبتي، المسلمون يتطلعون إلى الهلال لكي يصوموا، طبعا صيامهم يختلف عن صيامنا، وبواسطة الهلال عندما يرونه صغيرا جدا يحتفلون بأعيادهم..

من المشاهد التي كنت أحب التفرج عليها بين يوم وآخر، مشهد مجموعة من البنات الموريسكيات الصغيرات، كن يأتين في اليوم المخصص لاستحمام النساء إلى حمام قمرين للاغتسال، وكنت أعجب من مداومتهن على الاغتسال بين يوم وآخر مما لم أعهده في بلادنا الجميلة هولندا وفي كل أوربا، ليس وحدهن، أغلب الموريسكيين هكذا يحبون ارتياد الحمامات العمومية..

من مكاني كنت أنتظر البنات، أصابع يقطعها الظل، هو الوقت المتبقي لموعد مرورهن، منظر مختلف جماعات المواركة التي تمر أمام نافذتي في طريقها إلى حمام قمرين تبهجني، ليتك كنت معي لتشاركيني المتعة، لكني أخشى عليك من هؤلاء القساوسة، إنهم يرتكبون فظائع بحق الناس هنا أضعاف ما فعلوه في بلادنا، عزيزتي كنت أستمتع بمشاهد وفود الموريسكيين والموريسكيات بهيئة جماعات إلى الحمام كل يوم، لكن بشكل خاص كنت أستمتع أيما استمتاع بمجيء البنات الموريسكيات، منذ رأيتهن لأوّل مرة يأتين للاغتسال في حمام كامرينا، هكذا يلفظ

الإسبان اسم كمرين صاحبة الحمام، أنا أيضا ألفظ اسمها الموريسكي بصعوبة، هي امرأة تجاوزت الخمسين، محتشمة الملابس، لا يكاد يرى منها غير جانب من وجهها، الجميع هنا يحترمونها، حتى القشتاليين، والدها ملاح شهير، شارك كولمبس في رحلته وهو أول بحار يرى الأرض الجديدة، أمريكا، وهذا سبب احترامهم له ولابنته كامرين..

لا أدري ما شدني لهؤلاء الصغيرات وجعلني أنتظر مرورهن كل يومين، ربما لأنهن بعمر ابنتنا كريستينا ومرحات مثلها، كن صغيرات لا تتجاوز أعمارهن العاشرة أو الحادية عشرة، أثوابهن فضفاضة وملونة، متعددة الألوان، زاهية ومزركشة بخيوط ذهبية وفضية وبيضاء، منظر ما لم أره عند القشتاليات اللواتي تذكرني أثوابهن الداكنة بالشتاء الرمادي الثقيل عندنا، وهذا يفسر لك سر ارتياحي للمتاجرة مع البلاد الدافئة، وما أدهشني وفاجأني يا عزيزتي، هو ما لم تكن تفعله حتى بنات بلادي، بلاد الأزهار، أنّ أغلب سيدات الموريسكوس هنا يغطين

رؤوسهن بقبعات محلاة بالورود الجميلة، أكاليل ورد، تصوري كم هو بديع أن ترى أزهارهن تحركها النسمات ويضوع منها إذ اقتربت منهن – وعادة أفعل ذلك، أعترف- عطر منعش ومريح يعيدني إلى مروج الربيع ومراتع صباي، هذه الدهشة ما زالت تلازمني كلما رأيت سيدة موريسكية تزين رأسها بالأزهار الطرية الملونة، أي ذائقة بديعة ذائقتهن نساء أندلوثيا، كل الموريسكيات صغارا وشابات وسيدات، كن أيضا

يصبغن أصابعهن وراحات أكفهن الناعمة بصبغة حمراء تشد الناظر، لا فاقعة ولا خفيفة، حمرة لم أرها من قبل، أخبرتني كامرين، أنها صبغة أوراق الحناء، يزرع القليل منها هنا في إسبانيا ونوعيته رديئة، لكن جيد الصبغة منها يجلبه التجار من مراكش وبلاد العرب الحارة.

البنات الصغيرات حينما يأتين ينشرن مرحهن على طول الطريق، من النقطة البعيدة حيث تقع عيني عليهن وإلى أن يقتربن أكثر، أسعد لحظاتي النفسية حين يصلن أمامي مباشرة، ثم يختفين في الحمام، يتراكضن ويمزحن وتتناهى إلي ضحكاتهن، حتى بدا لي أحيانا أني أحلم، كلما أراهن أتذكر ابنتنا كريستينا، بشقاوتها وشقرتها، أتذكر لعبنا معا، واحتجاجاتك إذا غبنا عنك قليلا..

أضافت خيمة إشبيلية:

" منذ أكثر من شهر وهو ينتظرهن، بين يوم وآخر يأتين للاستحمام، هكذا كل الموريسك، يدمنون المجيء إلى الحمامات، حتى الرجال..

اليوم تأخرن قليلا ثم ظهرهن، أستغرب مشيتهن، كن مترددات، ينقصهن المرح، شيء من الخوف سرى حتى إليه، استشعره على ملامحهن من بعيد كما لو كان يشمه، وحيت توقفن دارت عينه إلى حيث ينظرن، أمامه عند باب الحمام، رأى مشهدا غريبا، جنودا قشتاليين وراهبين، كانوا يغلقون الحمام بأقفال كبيرة ويختمونها بطين أحمر يشبه الشمع، كانت قمرين واقفة ومذهولة حين غادروا.

عـــدد قليـــل مـــن النســـوة ابتعـــدن عـــن الحـــمام مسرـــعات، لم يـــر قمـــرين حزينـــة بهـــذه الحـــال حتـــى عنـــدما كانـــت تحدثـــه عـــن جـــدها (هـــلال رودريغـــو) ومـــا جـــرى لأفـــراد عائلتهـــا، لم تكـــن حزينـــة يومـــا كـــما هـــي الآن، وعـــلى مقربـــة وقـــف موريســـكيان بملابـــس قشـــتالية، بـــدا علـــيهما الامتعـــاض، وإلى الخلـــف مـــنهم التمت البنات الصغيرات على بعضهن، ساكنات كن وخائفات.

-سيدة كامرينا ماذا يحدث؟ نزل وسألها.

-أغلقوا الحمام، يقولون كل الحمامات تغلق بأمر صاحب الجلالة الملك.

وقالـــت بهـــدوء حـــيرني، أنهـــا لم تعـــترض قـــط وإلا ستســـاق إلى التفتـــيش وأقـــلّ مـــا أحكـــم بـــه لـــو اعترضـــت هـــو أن أبـــاع كجاريـــة وهـــذا حصـــل لـــلآلاف مـــن الموريسكيات، لذا لم أفعل شيئا ولا أحد يستطيع فعل شيء"

لم يكـــن لـــدي مـــا أقولـــه لهـــا ولا حتـــى مواســـاتها - كتـــب لزوجتـــه -، حقـــا لا أحـــد يمكنـــه مســـاعدتها إلا الـــرب، عـــدت إلى الفنـــدق لأصـــلي مـــن أجلهـــا، خطرت الصغيرات أمامي، تذكرت كريستينا، وصليت لهن أيضا.

عنـــد العشـــاء قـــال لي صـــاحب الفنـــدق: ســـنيور كـــولاني لاحظـــت تـــأثرك عنـــد إغلاق الحمام، هذا لأنك مسيحي صالح، وأضاف بحماسة:

-ســـنيور كـــولاني، لا تتـــأثّر لحـــال هـــؤلاء الموريســـك، إنهـــم أخطـــر مـــن المارانوش اليهود، أنت كاثوليكي صالح..

"لاحظي ديانا، إجادتي للتمثيل والتنكر، يقول لي أنت كاثوليكي صالح، الغبي يظنني كاثوليكيا، وكثيرا ما يحدثني عن إعجابه بفلورنسا وهو يعتقد أنّي منها. "

-هؤلاء الموريسكوس مخادعون سنيور، يظهرون بمظهر المسيحيين الأتقياء ويواظبون على الصلاة في الكنائس أكثر منا نحن النصارى القدماء، لكنهم في الواقع هراطقة ومرتدون، جميعهم هراطقة، لا تثق بهم، أنا سنيور لا أثق بأي منهم، كلهم يعبدون نبيهم محمداً ويقرأون كتابه في بيوتهم، يصلون سرا ويعلمون أولادهم صلاتهم اليومية..

أنت يا سيدي غريب لا تعرف هذه البلاد وأنا أخشى عليك من مخالفة إرادة صاحب الجلالة حين تتعاطف معهم، دعني أخبرك أن لم تصدق، مرات عديدة، عشرات المرات، أوه ليقطع لساني ماذا أقول، ليس عشرات سيدي، بل مئات وآلاف المرات يقبض رجال ديوان التفتيش المقدس عليهم وهم يمارسون صلاتهم وسحرهم، والعديد منهم حكم عليه بالحرق لأبطال سحره وشعوذته، هذه الموريسكية كامرين التي تتودد إليك، لا تصدقها، أنا أعرف عنها الكثير، جدها كان كافرا ومن أعداء الدين، حتى إنّه اخفى احد أعداء المسيح من المارانوش في بيته وكان يتآمر معه، وقد تم إحراقه هنا في هذا الميدان قبل ثمانين عاما، لا تنخدع بها سيدي ..

"هـذه المعلومـة كنـت أعرفهـا حقـا وقـد شـعرت بـالخوف مـن تهديـده المبطن"

-ولماذا أمر صاحب الجلالة بإغلاق حمامها؟

-سـنيور كـولاني، ألم أقـل لـك إنّـك جديـد عـلى بلادنـا، هـؤلاء الموريسـك لا يسـتخدمون هـذه الحمامـات للاغتسـال، مـا حـاجتهم لـذلك كـل يـوم أو يـومين، يسـتطيع السـيد القشـتالي البقـاء شـهراً أو أكثـر دون اسـتحمام، فهـل هـؤلاء الموريسـك الصـعاليك أفضـل مـن نبلائنـا وقساوسـتنا؟ هـل هـم أفضـل مـن المقدسـة إيـزابيلا التـي أعـادت غرناطـة إلى أحضـان الكنيسـة المقدسـة، إيـزابيلا المقدسـة هـي التـي افتخـرت بأنّهـا لم تسـتحم سـوى مـرتين، الأولى حـين ولـدت والثانيـة عنـد زواجهـا، هـل هـم أو نسـاؤهم العـاهرات أفضل منها؟ قل سنيور؟

لا سـيدي إنّهـم يسـتغلونها لغسـل وجـوههم وأيـديهم قبـل أن يصـلوا، هـذه أوامـر نبـيهم وهـم لا يخالفونهـا مـع أنهـم في بـلاد المـؤمنين الكاثوليـك، أؤكـد لـك أنّهـم يغتسـلون للصـلاة وهـذا كفـر، لـذلك امـر جلالتـه بـاغلاق بيـوت الشيطان هذه، الحمامات.

لـيس هـذا فقـط سـيدي، لقـد أمـر صـاحب الجلالـة بمـنعهم مـن ارتـداء أزيـاء الكفـرة الخاصـة بهـم، ولا يسـمح لهـم بعـد الآن أن يتحـدثوا بلغـة ديـنهم المحمـدي، كـما منعـت نسـاؤهم مـن التـزين بالأصـباغ، إنهـن يغـرين المـؤمنين الكاثوليـك في الطرقـات والأسـواق وحتـى عنـد حضـورهن الكـاذب

للصـــلاة في الكنيســـة، حتـــى الكنيســـة لا تحترمهـــا نســـاؤهم، فكيـــف يســـكت عنهم صاحب الجلالة.

***

صـــديقي، حكايـــة قمـــرين التـــي ولـــدت في خيمـــة إشـــبيلية، شـــدت المخـــيم كســـابقتها حكايـــة مايوركـــا التـــي ولـــدت في ذات الخيمـــة، نســـيت أنْ أقـــول لـــك إنَّ الـــدكتور أحمـــد رودمـــيرو ورد اســـمه ضـــمن أعضـــاء هـــذي الخيمـــة وكـــذلك اســـمي أنـــا، عـــمار إشـــبيليو، لكنـــي وقـــد قضـــيت حيـــاتي حالمـــا، لا أســـتطيع التمييـــز بوضـــوح بـــين مـــا أعيشـــه وأمـــر بـــه فعـــلا في الواقـــع، وبـــين مـــا أحلـــم بـــه، دائـــما تـــراني حالمـــا، يقظـــا ونـــائما أحلـــم، حتـــى وأنـــا في أشـــد انشـــغالاتي لا أنفـــك أحلـــم، آميكـــو، لا أحلـــم يعنـــي لا أتـــنفس، صـــدق أو لا تصـــدّق، أحيانـــا أحلـــم أنّي أنـــت، أو بـــالعكس، هكـــذا هـــو صـــديقك عـــمار، لا أطيـــل عليك وسنلتقي، أعدك، بإذن الله.

كانـــت رســـائل عـــمار إشـــبيليو تـــرد إلى بريـــدي ولا أردّ عليهـــا إلا بإيجـــاز، لـــيس عنـــدي مـــا أقولـــه ســـوى حثـــه عـــلى إكـــمال حكايـــات المخـــيم، مخـــيم المواركـــة المقـــام جنـــوب الأنـــدلس بـــين غرناطـــة وإشـــبيلية، تصـــفحت الإنترنيـــت والمواقع التي أرتادها بحثا عن خبر عن

المخـــيم أو أيّ إعـــلان عنـــه أو معلومـــة فلـــم أجـــد أيَّ ذكـــر، ربـــما أخفَـــوا أخبـــاره لكي لا يعكّر صفوهم أحدٍ، كتموا أخبار المخيم، لكن، لماذا التكتّم؟

أجاب عمار:

-الغياب والتواري عن أنظار التاريخ حال لازم الموراكة وما حل بهم، تاريخهم مسكوت عنه، يبدو لي أنَّ هذا هو المبرر الفني لإخفاء أخبار المخيم وتغييب فعالياته، وربما كان في هذا التكتم احتجاجٌ منهم على إهمال الآخرين لما حل بهم من مآسٍ.. لنقل إنَّ فكرة المخيم هي اختلاق أندلس مصغرة، أندلس الموريسكيين في القرن السادس عشر وما تلاه، إعادة تمثيلها على خشبة مسرح، يمثلها هذا المخيم..

اقرأ معي أرجوك هذه القصاصة مرة أخرى:

" المارانوش الذين اعتذر خوان كارلوس منهم،

كانوا يهودا

والموراكة الذين نسيتهم حتى مدارسنا،

كانوا موراكة.. "

الكاتب الموريسكي يشير هنا إلى اعتذار الملك خوان كارلوس بنفسه مما جرى لليهود في قشتالة، لكن، كما قلت لك، إن كتم حالنا وغيابنا هو الواقع وهكذا فعلنا بأخبار المخيم، أليس مخيماً للموراكة هو؟!

لا أريد أنْ أؤذيك أكثر، لكن لتطّلع لا غير، فقط لتطلع، اقرأ معي وأعد قراءاتك كلها، لست أنت فقط، كلنا يحتاج لإعادة قراءاته للتاريخ وحقائقه، كلنا..

لماذا؟!

ما فعله الكاردينال زمينز

وبشاعات خوان أوستريا،

تجاهلها ليون الأفريقي أو حسن الوزان،

لماذا؟! تساءل موريسكي بمرارة،

وأمامه في التلفاز قدمت جائزة أستورياس للأدب 2010.

حقا تساءلت معه، ولكن حكاية قمرين تتراءى أمامي وعمار تأخر في الكتابة، إيميله لا يستلم، وغير هذا لا اتصال بيننا، أحيانا أشكّ في نفسي وأكاد أصدّق بأنّي أنا من يختلق كل هذي الأحداث والحكايات ويكتبها..

بعد أيّام أفضيت بشكوكي وما أنا فيه من تشوش إلى عمار أشبيليو، والغريب أنّه ردّ ببرود:

-إنَّ هذا ما يحصل لي تماما.

لكنـــي لم أتوسّـــع معـــه في الموضـــوع، كـــي أتـــيح لـــه التفـــرغ ليحكـــي لي عـــن قمرين أو كامارينا كما يسمّيها كولاني تاجر الحرير المتنكر، وكتب..

خيمـــة غرناطـــة، وهـــي الأولى في الترقـــيم طبعـــا، عزفـــت عـــلى وتـــر الحكايـــة، حكايـــة قمـــرين أو حكايـــة إغـــلاق الحمامـــات، كأنهـــا لم تتقبـــل انفـــراد خيمـــة إشـــبيلية بهـــا، فنشرـــت عـــلى رواد المخـــيم مـــا أبدعتـــه ريشـــات أصـــحابها مـــن حكاية تجمع بين الألم الإنساني والمحبة، حكاية سوق القيصرية..

سوق القيصرية

لم يكن اسمه كولاني، تاجر الحرير في حكاية قمرين، كما أنّه كان بروتستانتيا هولنديا من دنهل، ولم يكن إيطالياً ولا كاثوليكيا، لكن براعته في التجارة مكنته من جمع ثروة طائلة جعلته قريبا من أورانج أمير الهولنديين البرتستانت المتمردين على الاحتلال الإسباني لبلادهم، كلفه أورانج بعدة مهام ليقوم بها خلال رحلاته، كان يتقن اللاتينية ولغة الإنكليز مما ساعده على النجاح، خاصة في المدن الإيطالية، فينيسا وجنوى وفلورنسا، وادعى هناك أنّه كاثوليكي، واختلط بالإضافة إلى الأوربيين بتجار عرب وأتراك، اشترى منهم التوابل والتمور، وباعهم الحرير الهولندي، الأقلّ جودة من حرير غرناطة النادر.. لكن في الموانئ الإيطالية، كان السؤال دائما عن حرير غرناطة الذي يباع بأثمان عالية لندرته وجودته.

حفزه الطلب على حرير الأندلس، خاصة ما ينسج في غرناطة، على السفر بحرا إلى قشتالة التي تعلم لغتها بصعوبة بعد أنْ قصد غرناطة وسوقها الشهير، سوق القيصرية، وطالت إقامته أشهراً..

"" زوجة الكاتب الهولندي المشارك في المخيم - اسمها فيرونيكا كما أتذكر- وكانت مهتمة بالتاريخ، وضعت خطا تحت عبارة "حرير الأندلس" وكتبت بمحاذاتها هامشاً استغرق جانبي الصفحة كلها. ""

"وفقا للمخطوطات الملكية في لاهاي لم يكن سفر باستن، مصادفة، لأجل تجارة الحرير كما ورد، كان سفر باستن إلى غرناطة مقصودا وبتوجيه من أمير أورانج للتجسّس وإثارة المشاكل داخل إسبانيا وللبحث عن مصير بعض الإسبان الذين اعتنق آباؤهم البروتستانتية خلال وجودهم في هولندا ضمن قوات الاحتلال الإسباني، وكانوا أصدقاء للشعب الهولندي، عملوا ما بوسعهم لمساعدة البروتستانت ورفضوا ظلم محاكم التفتيش واضطهادها لهم، وثمة عدة حوادث موثقة من هذا التواطؤ مع الهولنديين، في إحداها اكتشف القشتاليون تعاون برادو، حامل البريد - بين الكنيسة الكاثوليكية وبين محكمة التفتيش - مع المطلوبين للمحاكم، إذْ كان العديد من المتهمين بالهرطقة (اعتناق البروتستانتية (يفرون قبل ساعات من اقتحام بيوتهم من قبل الجنود القشتاليين، تكررت حالات الفرار الغريبة تلك، فأثارت شكوك المحققين في محكمة التفتيش الكاثوليكية في دنهل، واستطاعوا بعد عدة كمائن ذكية أنْ يعرفوا الفاعل، كان أجداد برادو من سكان إيبريا القدامى الذين كانوا يدينون بالإريوسية، ثم كثلكتهم الكنيسة القشتالية، ويقال إنَّ بعض أقاربه في الأندلس الصغرى، أندلوثيا، كانوا قد اعتنقوا الإسلام قبل انهيار إمارة غرناطة الأندلسية، ومنهم من طرد مع الموريسكوس المتنصرين بعد عام 1609. "

لم توافق خيمة غرناطة على إضافة الهامش للحكاية، وأكّد المعترضون أنَّ حرير غرناطة هو الذي أتى بالهولندي بيتر باستن وليس أمراً أخر، وإنّ ما تذكره الحكاية عن سؤاله عن البروتستانت الذين أحرقتهم محاكم التفتيش في قشتالة كان وليد اللحظة وهو أمر طبيعي أنْ يتعاطف الإنسان مع أبناء دينه أو قومه.

لكنّنا للأمانة العلمية ثبتنا الإضافة كهامش، وأيدنا في هذا طيف واسع في المخيم وكذلك بعض أفراد خيمة غرناطة والذين حين رفض زملاؤهم من نفس الخيمة إضافة الهامش طالبوا بعرض الموضوع على التصويت الذي اشتركت فيه خيمة البشرات أيضا ولم تكن نتيجة التصويت لصالحهم.

لا أطيل عليك صديقي، ولكنها تفاصيل ضرورية لتعرف كيف كنا نمارس احتفالاتنا القصصية في المخيم.

لنعد الآن إلى إكمال حكاية سوق القيصرية، وفقا لما كتبته الخيمة الحمراء، خيمة غرناطة..

تتمّة سوق القيصرية

كان الهولندي بيتر باستن، وهذا اسمه الحقيقي، يتفحص القماش حين حاذاه أحدهم وهمس بأنَّ لديه حريرا جيدا ورخيصا.. ثم تنحيا جانبا وخاضا في حديث خافت وطويل، حفظت أوراق باستن بعضاً منه..

-كيف وثقت بي؟

-عرفتك أجنبياً، كما أنّك لست طليانيا كما تقول، ملابسك وكلامك لا يدلّ على ذلك، أليس صحيحا؟

-صحيح لكن ألا تخاف مني؟ أنا مسيحي أيضاً وقد أخبرهم عنك.

-أغلب سكان الأندلس من النصارى يحبوننا ونحبهم، عشنا معا أجيالاً عديدة، الكثير منهم تعرضوا للظلم مثلنا، حتى إنَّ الكنيسة أحرقت عددا منهم، فقط هؤلاء الشماليون الغلاظ يؤذوننا، كما أنَّ وجهك مريح، تشع منه الرحمة، كأنك مسلمٌ، لاحظتك في السوق تتعاطف مع المواركة، واضح أنّك تعرف مأساتنا، لا أدري لماذا يقتلنا القشتاليون ويفعلون بنا وبأولادنا ونسائنا ما لا يمكن التحدث به؟ لا أدري لماذا؟ فنحن طوال حياتنا لم نؤذ الآخرين، عشنا معا كالإخوان، لا أدري يا سيد، لا أدري لماذا.

-ولِمَ تريد بيعي حريرك سرا؟

-لا أريدهم أنْ يعرفوا، لدي الكثير لأبيعه لك بأثمانٍ ستربح منها، لدي أربع لفات كبيرة من أفخر الحرير الأندلسي، أخفيها، ولدي مصوغات ذهبية شغل مراكش والقاهرة وبعضها صياغة إسطنبول، هل تريد شراءها؟ أرجوك، خذها بأيّ ثمن، أنا بحاجة لبيعها الآن؟ أرجوك تفضل معي إلى الدار.

يقول باستن في أوراق وجدت في خزانة كتبه التي أعيدت إلى أهله بعد وفاته في الهند أو الخليج:

كان الباب وشبابيك داره مشرعة حين وصلنا، وما إن رآنا صبي صغير له حتى هرع إلى الداخل، كأنما يحذرهم مني..

-يظنك قشتالي، هذه حياتنا كلها رعب، حتى أطفالنا مرعوبون دائما.

-ما اسمه؟

-محمد وسمته الكنيسة ميشيل، وإذا وصلنا البر المغربي سالمين إنْ شاء الله، أوّل عمل أقوم به، هو ختانه، وأشار بأصابعه إشارة القص بالمقص.

ضحكا معا.. " ربما كان أبو محمد نفسه بغير ختان أيضا ولكنه لم يذكر هذا للهولندي. "

-ولماذا تقصه، المسكين سيتألم، أنا أيضاً مثله، هل ستقصونني إذا جئت لبلاد المسلمين؟

-معاذ الله أخي عيسى بدينه وموسى بدينه، أولاً هذا للتطهر، ثانيا المسلمون لا يفعلون هذا بغيرهم، لا يجبرون أحداً، لم أسمع بهذا من أبي وعمي، كانا يعلمانني الإسلام سرّاً.

-تتحدث وكأنك مسلم، ألست كاثوليكيا؟ "قالها باستن بمزاح".

ضحك أبو محمد، ثم هزّ رأسه علامة النفي وهو يربت على كتف باستن.

-قل لي الباب والشبابيك مفتوحة هكذا، لماذا؟ ألا تخشى من عدوانهم وقد يدخلون على عائلتك، لو كنت مكانك لأحكمت إغلاقها.

-يُمنع علينا إغلاق أبوابنا أو شبابيكنا يا سيد، يريدون التأكد من أنّنا نصارى فعلاً، وأننا لا نصلي مثل المسلمين أو نتلو القرآن، هكذا يقولون، ولكن الصحيح أنّهم يفعلون ذلك لأغراض أخرى، لإذلالنا وسرقة أموالنا، لا أستطيع التحمل أكثر، سأرحل سرّاً إلى العدوة المغربية.

-اسمع ما زال القشتاليون يتحكمون بنا أيضا، كما قلت لك، أنا هولندي يا صديقي ولست كاثوليكيا، بلادنا تقع على البحر، بعيدا في الشمال البعيد، ولو عرف هؤلاء الأوباش بحقيقتي لأحرقونني كما

يفعلون بكم، وعندنا أحرقوا الآلاف من الأبرياء لا لسبب، سوى أنّهم ليسوا كاثوليكا، سأشتري منك ما تريد وسأدفع لك مضاعفاً، قلت لي قبل قليل أنّهم أحرقوا بعض المسيحيين، هل تعرفهم؟

-المساكين الذين أحرقوهم أعرف بعضهم، هم لا يتبعون البابا الكبير في روما، هل هم من تبحث عن أخبارهم؟

-هم، نعم، هم، ما تعرف عنهم؟ أين عوائلهم؟ هل أقدر على مساعدتهم؟

-ريكاردو المسكين، أعرفه، كان صديقي، وطالما ساعدني في محن عديدة، كنت كلما أشعر بالخطر أختفي في داره، زوجته الطيبة لارنكا وابنتاه الرائعتان تانيا وأنخيلا، عشنا معا من زمان بعيد، لسنا نحن، أجداد أجدادنا عاشوا معا، جارنا سالم رحمه الله، عذبوه حتى مات، كان متزوجاً أخته، عذبوه لأنّه موريسكي ولأنّه صهر ريكاردو، قبل عامين شتمني جنديقشتالي من دون سبب، كان مخمورا حين شتمني ولم أحمّل، كان مسلحا، لكني هاجمته بكل قوتي ومع أنّه في شبابه إلا أنّ الله نصرني عليه، فطرحته أرضاً وأدميت وجهه بلكماتي قبل أن أتوارى، خشيت أنْ يكون قد عرفني فقصدت ريكاردو وأخبرته بما حصل، ظل قلقا عليَّ واستضافني في بيته أسبوعا كاملا، عشت معهم كأني أحدهم، وفي اليوم الثامن قتلوا ثلاثة موريسكيين تعرف الجندي عليهم، كان كاذبا طبعا وجبانا، وكانوا أبرياء، أنا لوحدي تغلبت عليه وعلى سلاحه وأشبعته

ضربا، لكنهم هكذا، وبعد عام أو أقلّ قبضوا على ريكاردو وسالم مع عدد من المسيحيين يسمونهم الهراطقة، اتهموهم بالكفر، وأحرقوهم، سكت الموريسكي للحظات وكان اسمه القشتالي ماركوس، ثم قال وكأنه ينظر لمكان بعيد..

أتذكّرها، كانت لارنكا محلولة الشعر وتركض، كأنها مجنونة تركض، وابنتاها خلفها، كن يركضن، لم أكن أعرف بالقبض على ريكاردو زوجها، فصحت وراءها وأردت الجري لكن جاري الموريسكي الكوازيل وكان موظفا عندهم في القصر، شدني بقوة وأغلق فمي.. مجنون، ما تفعل؟ زعق بي، وقال: هل تريد أن تهلكنا؟ سيحرقونك معهم، اسكت ولا تفعل شيئا، ولا تذهب لبيت ريكاردو ولا سالم أبداً.

كان الكوازيل يعرف ما يجري في محكمة التفتيش.. وكان حفل الإحراق قد حدّد موعده بعد أيّام لا أكثر.

-أين زوجته وبناته الآن؟

-أين هنّ، هه، جواري يا سيد جواري، يشتغلن كالخدم في بيوتهم، ويفعلون بهن ما يريدون، وبكى الأندلسي ماركوس..

ما جرى بعدها لبيتر باستن والأندلسي- لا نعرفه يقال إنّهما اتخذوا طريقا إلى الجنوب من غرناطة، بين ملقا والمرية، وتنقلوا كتاجرين كاثوليكيين من مواطني فلورنسا ومعهما عائلتيهما، أجادوا التنكر وارتدوا الزي

الفلورنسي ـ لئلا يشكوا بهم، كانت لارنكا وابنتاها مع باستن والغرناطي وعياله، لكنهم كانوا إذا لمحوا دورية من الجنود أو فرق الكنيسة، يخبئون النساء والأطفال في الأحراج أو خلف الصخور، حدث هذا مرارا حتى بلغوا الشاطئ ومعهم البضائع وهي التي أبعدت عنهم الشكوك طوال الطريق، ومن هناك اكتروا مركبا إلى مليلة على الساحل المغربي..

طويلة هذه الحكاية يا صديقي، لست أنا من قال ذلك، عدد من المشاركين في المخيم انتقد طريقة السرد فيها وقالوا إنّها مملّة بعض الشيء وتفتقر إلى الجاذبية، بينما مدح غيرهم ما حواه مضمونها من أخوّة ومحبة إنسانية بين أبناء الأندلس مسلمين ونصارى، الدكتور رودمير و أكّد على أهميتها كوثيقة وقام بتوزيعها بنفسه، ممّا أشعر الغرناطيين بالارتياح، وعلى كل حال فإنَّ بلوغ البَرّ المغربي نهاية طيبة، لكن دور باستن لم ينته بعد وسأقص عليك في رسالة قادمة ما أبدعته إضافة الكاتب الهولندي وزجته فيرونيكا.

لم يخبرني بما كتبه الهولنديان، يبدو أنَّه نسي، أو أجّل الموضوع، فقد أرسل لي حكاية ثانية تمثل تتمة إشبيلية لحكايتها عن كاسياس وعنوانها:

ملاحظتان لخيمة إشبيلية قبل أوردتها قبل الحكاية..

"ملاحظة أولى: كناري هي الابنة البكر لقمرين، تاريخ ولادتها مسجل في كاتدرائية إشبيلية بتاريخ 1547-6-24، ولقمرين ولدان غيرها، هما، حامد أو خوان رودريغو كما مثبت في الكنيسة، وهوليس الملاح

الموريسكي المعروف بنفس الاسم، لكنه حفيده، ولد حامد الذي اشتهر في الأدب باسم حامد بن قمرين، ولد عام 1552، بينما ولد أخيه الأصغر عمار أو أمّاريو بعده بخمس سنوات أيضاً.

ملاحظة ثانية: ذكرنا هذه التفاصيل الموثقة لكي لا يزعم آخرون انتساب قمرين إليهم كما حصل مع كاسياس، هذا السبب الأول، والثاني، كي يميز القارئ بين كناري بنت قمرين التي سيتداخل اسمها مع كناري أخرى، لكن من نوع مختلف".

كنـــاري

كـــان كاســـياس مســـلحا بســـيف قصـــير، مختبئـــا في الأدغـــال الكثيفـــة المحيطـــة بإشـــبيلية حيـــنما لمـــح مـــن بعيـــد ثلاثـــة فرســـان قـــادمين عـــلى الطريـــق المحـــاذي لمكانـــه حيـــث كـــان يترصـــد، أدرك أنهـــم قشـــتاليون قبـــل أن يقتربـــوا، ودعـــا الله أن يمكنـــه مـــنهم، تـــلا فقـــرات مـــن دعـــاء الثغـــور، صـــدره يغـــلي غيظـــا، ثـــم بانـــت شخصياتهم، كانوا فارسين وراهبا، ذاهبين ربما إلى قرطبة أو ملقا..

" لســـنا متأكـــدين مـــن وجهـــتهم، فـــإذا كـــان مكمـــن كاســـياس شـــمال إشـــبيلية، فـــإنّ وجهـــتهم قرطبـــة، أمّـــا إذا كـــان كاســـياس إلى الجنـــوب مـــن إشـــبيلية فهـــم يتجهون إلى ملقا أو قادس".

قريبـــا مـــن مكمـــن كـــريم، ترجـــل أحـــد الفارســـين لقضـــاء حاجتـــه، ومضى الآخـــران عـــلى مهـــل، لم يُضـــع كـــريم الوقـــت فـــانقض عـــلى القشـــتالي وهـــو عـــار وأجهـــز عليـــه بصـــمت، أخـــذ بارودتـــه القصـــيرة وســـيفه، فـــرح بالبـــارودة وأسرع بتفحصـــها ليعـــرف كيـــف يســـتخدمها، كانـــت محشـــوة ويبـــدو أنّـــه أخطـــأ فانطلقـــت الرصاصـــة واســـتدار الآخـــران بارتبـــاك، عـــادا بحـــذر، لا يعرفـــان مـــا جـــرى، وصـــاحا باســـم صـــاحبهما مـــرارا، هـــذا التـــأخّر وفّـــر لكـــريم كاســـياس وقتـــا لإعـــادة حشـــو البـــارودة وتصـــويبها عـــلى الجنـــدي الآخـــر فقتلـــه، أمـــا الراهـــب فقـــد ســـقط مـــن فرســـه مرعوبـــا، اســـترجع كاســـياس وهـــو ينظـــر إلى وجـــه الراهـــب مـــا شـــاهده مـــن احتفـــالات إحـــراق الأحيـــاء مـــن الموريســـكيين، تـــذكر أنّـــه رآه في أكثـــر مـــن حفـــل إحـــراق أو تعـــذيب في الميـــدان

العام بإشبيلية، تذكر ملامح الابتهاج والوحشية على وجهه، وتذكر المايوركا وحمام قمرين، وكان سيفه القصير - وهو يتذكر- ينغرس أكثر فأكثر في صدر الراهب، وقف للحظات، ثم انحنى على جثث الثلاثة وخط على كل جثة بدمها، حروف كلمة مايوركا بالخميادو، تمنى لو أنّه يعرف الكتابة بالقشتالية.. ثم غير مكانه إلى جهة أخرى، مشى عشر ساعات دون توقف، قطع بعض المسافات بالفرس وبعضها مشيا، ومحا آثاره لمسافة، ولم يعثروا عليه، مع أنهم كانوا خيالة وبالعشرات.

أحد المارانوش اليهود فك لهم رموز الخميادو، وعرفوا أنّ القاتل هو كاسياس، وانتشر الخبر في إشبيلية، وشعر المسافرون بالخطر، أمّا المواركة، فقد كانت أخبار كريم تخفف عنهم وتفرحهم، ربما كانت قمرين أكثرهم فرحا وافتخارا بما يفعل..

مما كتبه حامد بن قمرين بيده، أنّه فوجئ وهو على السطح برجل يناديه بهمس، التفت، وجدته كاسياس، أعطاني دوقات ذهبية، قال أعطها لأمّك، أوصاني بالكتمان وحذرني من أنّهم سيحرقوننا إذا عرفوا بأيّ شيء، ثم أخذ معه حمامتين وقال: أخبر السيدة قمرين أنّي إذا احتجت إليها سأرسل لها رسالة بقدم الحمامة، وقال لي: حامد تفقد برج الطيور كل يوم فإذا وجدت ورقة مربوطة بقدم إحدى الحمامات خذها لأمّك بسرعة ولا تعطها لغيرها أبداً، ثم ودعني، وكان الوقت ليلا.

بعد أيّام ستعرف قمرين أنّ مؤونتهم نفذت، وستجازف بجرأة يفتقر إليها الكثير من الرجال وستوصل الخبز والتين المجفف وأنواعاً أخرى من الطعام إليه بنفسها، لم تخبر أحداً، حتى حامداً، الذي عرف بذلك بعد حين، وحرصت على أنْ تكون تحت يد كريم دائما حمامة أو حمامتان كي لا تنقطع أخباره، وفي إشبيلية انتشرت الشائعات عما يفعله كريم كاسياس بضحاياه، وحيكت الأساطير والقصص الخيالية حوله حتى إنّ القشتاليات كن يخوفن صغارهن بكاسياس ذباح القشتاليين، وفي كنائس إشبيلية كان جميع المصلين، رجالاً ونساء يختتمون صلواتهم بالدعاء إلى القديس ياغو ذباح الأندلسيين ليخلصهم من كاسياس، وبعثت الكنيسة بعدة مجموعات ليحجوا مشياً إلى سانتاياغو في كومبوستيلا البعيدة ويتضرعوا لديه بالخلاص من كاسياس، وكل هذا كان ينزل كالماء بارد على قلب قمرين. ابنتها كناري كانت تفرح أيضاً وحامد وأغلب المواركة، عدا بعض الخائفين من انتقام الكنيسة ورجالها المرعبين، ولم تُطلع قمرين ابنها عمار على أيّ شيء لصغر سنّه.

أنا متعب أخي وعلي أنْ ألتقي بالدكتور أحمد لترتيب وضع المخيم، بالتأكيد سنتواصل، بإذن الله، لكني متعب الآن، دعاءك.

ما علاقة كناري بمضمون الحكاية؟ لم أفهم، ولماذا أوردوا الملاحظتين عنها في المقدمة؟ كنت أتساءل وأنتظر، بعد أيّام ظهرت رسالة من عمار فقرأتها متلهفا، أكثر من حكاية انتظر نهايتها بشوق، كأنما كان ذلك

التـــأخير مقصـــودا منـــه، لكنـــه أكـــد لي فـــيما بعـــد، أنّ ســـير الاحتفـــالات القصصـــية في المخـــيم كانـــت عـــلى هـــذا النحـــو العشـــوائي الغريـــب والمثـــير للمتعة والانشداد..

كانت رسالته تتمة لحكاية كناري الجميلة وأسموها:

كناريات

انتشرـــت عـــادة تربيـــة الحـــمام عنـــد المواركـــة، خـــلال وقـــت قصـــير وبشـــكل غريـــب لم يفطـــن القشـــتاليون لـــه، كـــان المواركـــة يســـمونها كناريـــات، وكـــان بعـــض الحـــمام، ربـــما لكثرتـــه، يحـــط أحيانـــا عـــلى ســـطوح الآخـــرين، ظـــاهرة جميلـــة ارتـــاح لهـــا ســـكان إشـــبيلية، حتـــى الشـــماليون مـــنهم، وأكثـــر الأبنيـــة جـــذبا للكناريـــات كانـــت كاتدرائيـــة إشـــبيلية وغيرهـــا مـــن الأبنيـــة العاليـــة، ومنهـــا قصرـــ الطـــين الـــذي بنـــاه أحـــد الأندلســـيين قبـــل 300عـــامٍ، بنـــاه في نفـــس المكـــان الـــذي لعبـــت فيـــه بـــالطين اعـــتماد الرميكيـــة زوجـــة المعتمـــد بـــن عبـــاد، أمـــير إشـــبيلية وكـــان الطـــين الـــذي أمـــر المعتمـــد بإعـــداده لهـــا لتلعـــب بـــه مـــع وصيفاتها، معجونا ومضمخا بأغلى وأندر أنواع العطور..

في هـــذا القصرـــ يقـــيم الآن الـــدون الفونســـو خيمينـــز، الرجـــل الأقـــوى والأغنـــى في إشـــبيلية وصـــديق الـــدون خـــوان أوســـتريا أخ صـــاحب الجلالـــة الملـــك فيليـــب الثـــاني ملـــك قشـــتالة المعظـــم، يقـــع القصرـــ في قلـــب إشـــبيلية تقريبـــا، أغلـــب بنائـــه قـــديم، وبعيـــد عنـــه في طـــرف إشـــبيلية بنـــى أحـــد أغنيـــاء المواركـــة دارا شـــبيهة بـــه، وأســـماها، دار الطـــين، لم تكـــن تختلـــف عـــن قصرـــ

الطين إلا بحجمها، فقد كانت أصغر بكثير، كما أنّ مظهرها من الخارج لم يكن جذابا، وقد تعمد صاحبها تشويه جدرانها الخارجية لئلا يطمع بها الإسبان، من الداخل كانت آية في الفن والروعة وجمال البناء، تغطي جدرانها الفسيفساء الأندلسية ونقوش المغاربة، وكان توزيع الألوان في الداخل مدهشا وساحرا للنظر، وأكثر المواركة يعرفون هذا ويكتمونه خشية على أخيهم بن سالم صاحبها، الذي لم يكن يفوت فرصة لمساعدة إخوانه وكانت له بعض العلاقات مع رجال الدولة والكنيسة حتى إنّهم يرونه كاثوليكيا صالحا وإن كان موريسكيا، لكثرة تبرعه للكنيسة ورجالها، وعلى سطح الدار أنشأ لويس ابنه قنا واسعا للكناريات، وكان عددها كثيرا وأشكالها مختلفة وبريش مختلف الألوان، وتعد من أجود حمام إشبيلية إذ كان بعضها يقوم أثناء طيرانه بحركات تقلب جميلة تثير الدهشة وتنم عن أصالة الحمامات وذكائها، فذاعت شهرة كناريات لويس بين الأندلسيين المواركة، أمّا القشتاليون فليس لهم اهتمام بتربية الحمام ولا معرفة بفنونه، لكن طيرانه في سماء إشبيلية وألعابه كانت تشد بعض المترفين منهم، وأحياناً حتى الرجل القوي الفونسو، كان يتلهى بمشاهدة أسرابها في الأوقات النادرة التي يصعد فيها إلى سطح قصره، قصر الطين، للترويح عن نفسه، حدث هذا مرات عدة، وكان يعجب لتقلبات الطيور وألعابها المدهشة في السماء فساورته الشكوك بأنّها من السحر الذي يتقنه الموريسكوس والهراطقة، وكي يتقي سحرهم كما أخبره صديق له أمر الخدم بنثر الحب على سطح قصره لإطعامها..

في صباح يوم أحد قبل توجه دون الفونسو إلى الكنيسة - كما تذكر مخطوطة محفوظة في مكتبة الإسكوريال بمدريد - وكان في ساحة القصر مع ضيوف له، ذرقت حمامة على صلعته، ومن بين الضيوف سيدتان من قريبات الدون خوان أوستريا وبعض النبلاء، فتضاحكت إحدى السيدتين، تبعتها الأخرى بالضحك وسرت العدوى للجميع، حتى الفونسو، اضطر لمشاركتهم الضحك وهو يمسح رأسه لا إراديا، وشاع الخبر في الطبقة الأرستقراطية وصار حديث الحفلات في إشبيلية على مدى الأسبوع، لكن في الأحد التالي عند إقامة القداس في الكنيسة أدهش القس الجميع بذكر الحادثة واتهم الموريسكوس بالتعمد في إهانة الدون الفونسو وطالب بمعاقبة كل من يربي طيور الشيطان في بيته .. حرمة الكنيسة والقداس وحماسة القس وهو يلقي عظته عن طيور الشيطان لم تمنع بعض المصلين من خفض رؤوسهم والضحك وعلت همهمة خافتة كبحها صوت القس الغاضب وهو يؤنب المؤمنين لاستخفافهم بخطورة الحدث..

جلدوا العديد من المواركة، وشويت الحمامات التي أمسكوها أو أطلقوا النار عليها، لكن التهمة وجهت تحديدا إلى بن سالم، ربما لكثرة الحمام عنده، ولأنّ الحمامة التي ذرقت على رأس الفونسو كانت من ضمن سرب عائد له، كما ادعى رجال الفونسو، وسيق بن سالم مقيدا إلى الكاردينال زمينز الذي وإن كان يستمتع ويضحك بكل قوته كلما

أعيدت الحكاية على مسامعه، إلا أنّه انزعج لأنَّ الفونسو كان مقربا من الدون خوان أوستريا، ولأنّ الفعل نسب إلى موريسكي..

بقي بن سالم عدة أشهر، لا يعلم مصيره أحد، وقد صادر الفونسو كل أملاكه، ومنها داره، وزاد من غضب الفونسو أنّه حين اقتحم دار بن سالم لاعتقاله فوجئ بتشابه تصميمها وشكلها من الداخل مع تصاميم قصره فاستشاط وضرب بن سالم أمام عياله، ثم أمر بتخريبها وجعلها إسطبلا لخيوله، كما أخذ جاريته هيلينيا لتعمل خادمة في بيته، وكان بن سالم قد تزوجها قبل عام لمرض زوجته أم لويس، وفوق هذا طرد الفونسو كل عائلة بن سالم، لكنه عاد بعد أيّام وسمح لهم بالسكن في حجرة تقع عند نهاية بستان تفاح ملحق بالدار، كان الفلاحون يتخذونها للاستراحة أوقات العمل، لذا فهي واسعة، بنيت حيطانها من الطين وسقفت بالقش والقصب..

لكن الغريب أنَّ بن سالم عاد إلى إشبيلية بوقار، أو كما كان أطفال المواركة يرددون (عاد سالما بن سالم - عاد سالما بن سالم) كأن عودة أي شخص سالما بعد اعتقاله من قبل محاكم التفتيش يعتبر معجزة وهكذا سرى هذا المثل بين المواركة

"عاد سالما بن سالم" للدلالة على أنَّ من يكتب الله له الحياة فسيحيا رغم أنف النغل أوستريا وزمينز كما يقولون.

ويقـــال إنَّ وســـاطات قشـــتاليين وأراغـــونيين مـــن إشـــبيلية اشـــتغلت لـــدى الكاردينـــال لصـــالح بـــن ســـالم فـــأفرج عنـــه مـــن اليـــوم الأوّل، لكنـــه أبقـــاه عنـــده عدة أشهر مراعاة لألفونسو.

عـــودة بـــن ســـالم جعلـــت العديـــد مـــن الموريســـك يظنـــون أنّـــه كـــان مقشـــتلا، أي مـــن المـــوالين لقشـــتالة، غـــير أنَّ اســـتمرار مصـــادرة الفونســـو لـــداره وبســـاتينه، وتوضـــيحات ابنـــه لـــويس إذ شرح لهـــم حقيقـــة مـــا جـــرى مـــن وســـاطات، بـــدد الشـــكوك عنـــه، ومـــا جـــرى لـــبن ســـالم وفقدانـــه لـــداره وأملاكـــه، جعلـــه يتحـــرق للانتقـــام، وكـــان لـــويس، ولـــده الشـــاب، أكثـــر احتقانـــا منـــه، واســـتطاع هـــو وصـــديقه الأصـــغر عمـــرا حامـــد بـــن قمـــرين، أن يـــدخلا في صـــفوف الكبـــار الـــذين كـــانوا يخططـــون للثـــورة ضـــد القشـــتاليين، وكلفـــوا لـــويس وحامـــداً باســـتخدام الكناريـــات سرا للتواصـــل مـــع كـــريم كاســـياس وغـــيره مـــن المواركـــة خـــارج إشـــبيلية وداخلهـــا، ثـــم امتـــد نطـــاق تراســـلهم ليســـتفيد منـــه كاســـياس في التواصـــل مـــع المنـــاطق البعيـــدة خاصـــة جبـــال الـــثلج والجبـــل الأحمر وضواحي غرناطة

اتخـــذ حـــاكم إشـــبيلية قـــرارات عـــدة لمنـــع تربيـــة الحـــمام، واصـــطياده، إضـــافةً إلى عقوبـــات مخيفـــة لكـــل مـــن يربيـــه ويؤويـــه أو يعتنـــي بـــه، ومنهـــا إرســـاله للعمـــل ســـخرة عـــلى ســـفن الأســـطول، وكـــان المواركـــة يعرفـــون أنَّ معنـــى العمـــل عـــلى ســـفن الأرمـــادا، هـــو القيـــام بالتجـــذيف لحـــوالي 20 ســـاعة في اليـــوم وبظهـــور

عاريـــة كـــي يضربـــب بالســـياط أي مـــتراخ في التجـــذيف، مـــع قلـــة الطعـــام، وكثرة حالات التخلص من المرضى أو المعاقبين بإلقائهم في البحر..

ومـــع كـــل هـــذه الإجـــراءات العنيفـــة، لم يكـــن أمـــام بعـــض المواركـــة إلا الاســـتمرار في اســـتخدام الحـــمام لأنّهـــم كـــانوا عـــازمين عـــلى الثـــورة فقـــد تصـــاعد تـــذمر المواركـــة بســـبب تطبيـــق القـــرارات الصـــارمة لفيليـــب الثـــاني التـــي صـــدرت في ذكـــرى دخـــول الجـــيش القشـــتالي لغرناطـــة، لكـــن حادثـــة الحمامـــة مـــع الفونســـو واعتقـــال بـــن ســـالم أثّـــرا كثـــيرا عـــلى نشـــاطاتهم، فقـــد غـــدت مطـــاردة مـــربي الحـــمام الشـــغل الشـــاغل للفونســـو ورجالـــه، بـــل إنّـــه وبعـــد أنْ كثـــر اصـــطياد الطيـــور، لجـــأت الكناريـــات غريزيـــا إلى أعـــلى البنايـــات الشـــاهقة ومـــع هـــذا تابعوهـــا حتـــى في بـــرج الأجـــراس أعـــلى كاتدرائيـــة إشـــبيلية، والـــذي حـــل محـــل المئذنـــة، فقـــد صـــار ملجـــأ آمنـــا للكناريـــات فلـــم يســـتطيعوا إيـــذاءها وهـــي تختـــل فيـــه أو حتـــى عليـــه، وكـــان منظرهـــا وهـــي تتجمـــع أعـــلاه مزعجـــا ومثـــيراً لغضـــب الفونســـو الـــذي سرت الشـــائعات بأنّـــه ســـيكون حـــاكم إشـــبيلية قريبـــا، ولحـــل المشـــكلة والـــتخلص مـــن طيـــور الشـــياطين كـــما يســـمونها، تفتقـــت الأذهـــان عـــن فكـــرة اقتبســـها المهنـــدس والنحـــات القشـــتالي (هيرنـــان رويـــث) مـــن قراءتـــه عـــن أحـــد تماثيـــل قصرـــ الحمـــراء في غرناطـــة، فقـــام هـــذا النحـــات وبـــدعم وتحمـــس حكومـــة إشـــبيلية بنصـــب تمثـــال لفـــارس يحمـــل رمحـــا عـــلى قمـــة المئذنـــة، ويرتكـــز الـــرمح عـــلى محـــور متحـــرك لتـــديره الريـــاح حســـب وجهتهـــا، ســـمي هـــذا التمثـــال بالخيرالـــدا أو دوارة الريـــاح واشـــتهر بعـــروس إشـــبيلية وكـــذلك بـــوردة

الريـــاح لأنّهـــم بواســـطته تمكنـــوا مـــن إخافـــة الحـــمام مـــن أن يحـــط عـــلى أبـــراج الكاتدرائيـــة كلهـــا، كانـــت الحمائـــم في البدايـــة تفـــر مـــن الفـــارس ورمحـــه كلـــما حركتـــه الريـــاح، لكـــن كثـــرة تحـــرك التمثـــال بفعـــل الريـــاح المســـتمرة في الأعـــالي والمتغـــيرة الاتجاهـــات، جعلـــت الحـــمام يهجـــر بـــرج الكاتدرائيـــة نهائيـــا، لقـــد انتصـــروا بفضـــل تمثـــال الخيرالـــدا عـــلى ســـحر الموريســـكيين وحمـــائم الشـــيطان، هكذا يقولون..

وخـــلال نشـــوته وفرحـــه بهـــذا الانتصـــار عـــرف الفونســـو صـــدفة أنَّ ســـبب تســـميتهم لهـــا بالكناريـــات، مـــع أنّهـــا حمامـــات وليســـت كناريـــات، هـــو اعتـــزاز الموريســـكيين بقمـــرين، لـــذلك اتخـــذوا مـــن اســـم ابنتهـــا كنـــاري اســـما لطيـــورهم الشـــيطانية، وأخـــبره أحـــد أفـــراد حاشـــيته أنّ الســـبب بهـــذه التســـمية يعـــود إلى جمـــال كنـــاري بنـــت قمـــرين، وهكـــذا دار في حضرـــة الفونســـو نقـــاش طويـــل تخلله التهكم بالموريسكيين وحماماتهم..

-قمرين، ماذا تسمون حماماتكم اللعينات؟

"ســـألها الفونســـو بعـــد أنّ قصـــد بيتهـــا وحولـــه عشرـــون فارســـا مـــدججا بالسلاح".

-لقـــد تخلصـــنا منهـــا دون الفونســـو، تخلصـــنا منهـــا جميعـــا بعـــد أوامـــر أبينـــا القس.

-أعرفُ، سؤالي ماذا كنتم، تسمون بنات الشيطان، حماماتكم؟

-ماذا نسميها، حمامات أو طيوراً، دون الفونسو.

-ما اسم ابنتك؟

-كناري سيدي (قالتها خائفة متلعثمة، واستشعرت الخطر)

-وتسمون الحمام كناري ها؟

-لا سيدي، أقسمُ بالعذراء مريم سيدي، لا أسميها هكذا، ربما غيرنا.

-أين ابنتك كناري؟

-مريضة دون الفونسو، هذه صغيرة، لا شأن لها بالطيور.

-نادِيها.

أتوسل إليك دون الفونسو، ابنتي لم تفعل شيئا (قالتها وهي تبكي وجثت تتوسل به.)

-لا، لا تخافي فقط أريد أن أراها، لأسألها هي.

-سيدي المبجل أرجوك سيدي، أنت كاثوليكي صالح وهي طفلة بريئة، وهي تكره الحمام مثلكم سيدي ولا تصبغ يديها بالحناء ولا تستحم.

-اسمعي قمرين، قلت لك لا تخافي، هاتها بسرعة وإلا..

هرعت قمرين إلى داخل الدار، لكن الفونسو لم ينتظر، ودخل خلفها، كانت كناري واقفة تسمع الحوار، وندت من قمرين شهقة حين شعرت بالفونسو خلفها..

-ها كناري كيف حالك؟ أرني وجهك.

كانت كناري متلفعة بشال يخفي نصف وجهها كعادة الأندلسيات في الاحتشام، وترتدي جلبابا فضفاضا يغطي ثوبها وسروالها النازل إلى القدمين .. نظرت إلى أمّها كأنها تستنجد بها، ثم أرخت شالها، وكانت قمرين تتابع نظرات الفونسو، وأدركت بحس الأنثى نواياه حين تفرس بوجهها وقال:

-ابنتك جميلة قمرين، كأنها قمر، لهم الحق يسمون الحمام باسمها، ثم رمى كناري بنظرة وقحة وخرج..

كتبت مارتينا الموريسكية تعليقا موجزا:

يوم الطين

"قصر الطين الذي كان يسكنه الفونسو بناه خيري بن سالم أحد أغنياء الأندلس وصار من بعده ملكا لأولاده حتى آلت ملكيته للجد الثاني لابن سالم الحالي واسمه سالمين وبعض كبار السن من الموريسكيين إلى الآن يسمونه قصر سالمين ويتحسرون على صاحبه وقد قامت الكنيسة بمصادرته لسبب لم تذكره مصادر التاريخ وقبل سنوات اشتراه

الفونسو، وكان بن سالم لا يفوت مناسبة إلا ويذكر فيها قصره المغتصب، ومن شدة تعلقه به بنى داره كأنموذج مصغر لقصر الطين لكنه موه واجهته وحيطانه الخارجية لئلا يلفت انتباه الفونسو ويثير غضبه."

وبعد ساعات أضافت مارتينا توضيحا آخر:

(اعتماد الروميكية حبيبة المعتمد بن عباد أمير إشبيلية الأندلسي وزوجته، رأت يوما من شرفة قصرها فلاحات يمشين في الطين وكن يغنين وهن فرحات، فاشتهت أنْ تفعل مثلهن وتمشي في الطين، فأمر المعتمد بأنْ يعجن الطين بالمسك والعطور كي تمشي فيه، وسمي هذا اليوم بيوم الطين)

ثم نزل تعليق ثالث، لم يوقع باسم..

"ومن أضاع الأندلس وجعلنا نسكن في هذا المخيم غير يوم الطين وأمثاله!"

أدركت قمرين أن كناري غدت هدفا لهذا الطاغية، ولم تُضع أي وقت وقررت المجازفة، دعت حامداً، وقالت له:

-سافر بأختك خارج إشبيلية، قل لمعارفك، خاصة النصارى القدماء منهم، أنّك ستأخذ أختك للعلاج في قرطبة، مرضها خبيث، قل هكذا لأكثر من شخص، اليوم افعل هذا لينتشر الخبر، ثم اخرج بها ليلاً.

-إلى أيــن يــا أمــي؟ إذا غبــت أنــا معهــا ســيؤذونك أنــت، ويقولــون أنّي ذهبــت إلى كاسياس.

-لا أوصــلها هنــاك، اســمع تــأخر معهــا بضــعة أيــام وزوّجهــا لكــريم كاســياس، هــذا الحــل الوحيــد، لا نــترك ابنتنــا لوحــدها وهــي غــير متزوجــة، زوجهــا لكــريم، أخــبر عمنــا عــلي الخــير ودعــه يتــولى الأمــر، ثــم عــد إلي، مــا رأيك؟

-عين العقل أمّي، بإذن الله سأفعل..

واصــل المواركــة الاعــتماد عــلى مــا تبقــى مــن حمامــات لتبــادل الرســائل سرا، ووطنــوا أنفســهم عــلى الثــورة بعــد التطبيــق العنيــف لقــرارات فيليــب الثــاني، وكــان حامــد بــن قمــرين ولــويس وأبــوه بــن ســالم مــن الناشــطين في داخــل إشــبيلية، إلى أنْ قامــت ثــورة الأنــدلس بعــد عــام مــن إغــلاق حمــام قمــرين، وقتهــا غــادر لــويس النــاجي الوحيــد مــن أهلــه إلى مكــان مجهــول ورافقــه حامــد بعــد ترتيــب ســفر أمّــه وأخيــه عــمار مــع بيــتر باســتن الهولنــدي، حيــث اكــتروا قاربــا ونزلــوا في نهــر الــوادي الكبــير إلى منطقــة عــلى الســاحل بــين ولقــا وقادس، ومن هناك أبحروا إلى شاطئ البرتغال القريب..

أمــا في إشــبيلية فقــد جــرت المــذابح عــلى المواركــة، صــغارا وكبــارا، حتــى النســاء والأطفــال مــنهم، بــل ذبحــوا حتــى الرضــع انتقامــا مــن آبــائهم المشاركين في التمرد ضد صاحب الجلالة..

***

هكـــذا صـــديقي خـــتم الإشـــبيليون حكـــايتهم كنـــاري أو كناريـــات لكـــنهم وبإبـــداع تركـــوا النهايـــات مفتوحـــة وهـــذا يعنـــي أنّهـــم ســـيعاودون توليـــد حكاية جديدة، أو، أكثر.

لاحـــظ صـــديقي، أنَّ جملـــة السرـــد الخاصـــة بـــإغلاق الحمامـــات أخـــذت أغلـــب أوقـــات المخـــيم، ولا شـــك أنَّ التنـــافس الواضـــح بـــين الغرنـــاطيين وإشـــبيلية هـــو الســـبب، وهـــذا كـــما تعلـــم يعـــود لتـــاريخ العلاقـــة بـــين المـــدينتين في الأنـــدلس، وخاصـــة اشـــتراك أمـــير غرناطـــة وفرســـانها في حصـــار إشـــبيلية ومســـاعدتهم للجـــيش القشـــتالي، ويـــرون أنَّ غـــدر غرناطـــة هـــو الســـبب الأهـــمّ لســـقوط إشـــبيلية، بســـتان ملـــوك الأنـــدلس، كـــما تصـــفها إحـــدى مخطوطـــات الخميادو.

أرى أنّنـــي كتبـــت لـــك الكثـــير، لكـــن، قبـــل أن أتركـــك، سأكشـــف لـــك عـــن جولـــة أخـــرى مـــن التنـــافس بـــين إشـــبيلية وغرناطـــة، إذ إنّهـــما مـــع الحكايـــة القادمـــة التـــي أبـــدعتها خيمـــة غرناطـــة، ستشـــتركان في شخصـــية ثانيـــة بعـــد خلافهـــما حـــول كـــريم كاســـياس، باختصـــار قمـــرين هـــي موضـــع التنـــافس القادم.

في أمان الله

لــولا غرناطــة لمــا كــان لقمــرين شــأن ولمــا كــان حمامهــا موجــودا، هكــذا صدرت غرناطة حكايتها بانفعال، وكان عنوانها الرئيس هو..

حامد الملاح

نقلا عن إحدى المخطوطات المكتوبة بلغة الخميادو، والتي عثر عليها مخفاة في جدار عمال بناء خلال هدمهم لمنزل قديم في باجي ديل خالون، في أراغون، وحفظت في جناح الخميادو في مكتبة الإسكوريال..

تقول المخطوطة الموريسكية:

حامد الملاح الأندلسي المعروف بالملاح خوان رودريغو، واشتهر أيضاً باسم

رودريغو دي تريانا، هو الذي رافق القبطان الجنوي كرستوف كولمبس في رحلته لاستكشاف الهند عن طريق الإبحار غربا، وكان أول من شاهد الأرض الجديدة

"كما ثبت هذا كولمبس بخط يده في دفتره المحفوظ الآن ضمن ملفات دي أندياس في إشبيلية.."

وكولمبس الإيطالي، كان مغامرا ومتعصبا لكاثوليكيته، فشارك مع القوات الجنوية في حصار غرناطة الأخير، قاتل على أبوابها، وكان في سانتافي، معسكر إيزابيلا وفرديناند وبعد أشهر من سقوط غرناطة تسلم التفويض الملكي بالإبحارغرباً بحثا عن طريق جديد إلى الهند، لا يسيطر الأتراك والمغاربة عليه..

ومع كولمبس، في نفس الرحلة، شارك الملاح حامد رودريغو، الذي كان مقشتلاً وموجودا مع جيش قشتالة المحاصر لأهله في غرناطة..

"وبالإضافة إلى كرستوف كولمبس، أكّدت هذا وثائق المركيز أوف كاديز الذي كتب عن رحلة كولمبس الشهيرة.."

لكننا - تقول خيمة غرناطة – لا نؤيد ما ذكرته المخطوطة بأنّ حامداً كان مقشتلا، فربما كان حامد أو خوان رودريغو مضطرا للتواجد مع القشتاليين حفاظا على حياته من سطوة محاكم التفتيش وشكوكها، كما اضطر الغرناطيون للمشاركة بشكل رمزي وغير مؤثر في حصار إشبيلية..

كما أنّ مخطوطة أخرى من نفس الرزمة، تقول:

إنَّ الحاج هلال رودريغو رحمه الله والد حامد، دأب وبصبر وتستر على تعليم ولديه بدر وحامد، الكتابة بالعربية وقراءة القرآن، وكانوا مواظبين على الصلاة والصوم في ظروف لا يقدر صعوبتها إلا الله العالم وحده بأسرار خلقه، ولهذا نرى أنّ حامدا رحمه الله كان مضطرا للتواجد في معركة الأندلس الأخيرة وأنّه ربما شارك مع كولمبس في مغامرته البحرية على خطورتها، هربا من بطش قشتالة ولكي لا يشترك ثانية في أيّ موقف مشابه.

وبـــالأموال التـــي عـــاد بهـــا مـــن رحلاتـــه، بنـــى الحـــمام المعـــروف باســـم ابنتـــه قمرين، ومن هنا - بفضل غرناطة - جاءت شهرة قمرين وحمامها.

احتجاج خيمة إشبيلية

"حول اتهام حامد الملاح، احتجت خيمة إشبيلية وطلبت ذكر السبب الآتي والثابت تاريخيا بدلاً عن إثارة الشبهات للإيحاء باتهام لا دليل عليه.."

استنادا إلى ما ذكرته مراجع تاريخ مختلفة في مكتبة الإسكوريال، أوردت خيمة إشبيلية الآتي حول الملاح الأندلسي الإسباني خوان رود ريغو:

خوان رودريغو

إنَّ الملاح خوان رودريغو كان من موريسكيي إشبيلية التي خضعت لتسلط قشتالة قبل قرنين من سقوط غرناطة، لكنه كان متسترا بالكاثوليكية ولم يكن مقشتلا قطّ، فأبوه هو الحاج هلال، الذي حمل الاسم المسيحي كروس رودريغو، وسمته الكنيسة بـ (كروس) ردا على كلمة الهلال التي هي رمز المسلمين مقابل الصليب رمز النصارى القدماء وكروس أو كروث تعني بالقشتالية الصليب.

كان الحاج هلال تاجرا، وفي سفرته – التي حج خلالها سرا – خرج بذريعة التجارة من قشتالة بحرا إلى جنوى، وكان ابنه حامد معه، وهو الملاح خوان رود ريغو، وهناك التقى بكرستوف كولمبس وأصبحا صديقين من دون أنْ يعرف كولمبس أنَّ هلالاً وابنه كانا مسلمين. ومنه،

من الحاج هلال لا من غيره، عرف كولمبس حكايات عن رحلات بحرية للأندلسيين من الساحل البرتغالي تجاه الهند وبطريقين..

احدهما جنوبا مع سواحل المغاربة والزنج، والثاني إلى الغرب بمسار بحري مستقيم ولكنه حافل بالأخطار لاضطراب تلك البحار وتقلبات النوء فيها..

ثم افترقا، ورحل هلال لأداء فريضة الحج تاركا أغلب تجارته عند ابنه حامد – وكان شابا ذكيا - ليتاجر بها ويشتري بضائع يعودا بها إلى إشبيلية بعد عودة أبيه من الحج كي لا يتهمها رجال الكنيسة بالذهاب إلى الأتراك أو المغاربة للتآمر كما يفعل العديد من التجار والبحارة المواركة..

فكرة الإبحار إلى الهند شغلت ذهن المغامر كولمبس فتمسك بصداقة حامد، وأسفر تواجد حامد الشاب الأندلسي الوسيم بصحبة كولمبس عن تبادله الحب مع كارمن ابنة كولمبس فتزوجها بعد عودة والده الحاج هلال، ثم أبحروا جميعا إلى قشتالة ومعهم كولمبس..

نضجت فكرة الإبحار عند كولمبس وقرر عرضها على ملكي قشتالة وأراغون، بعد أنْ فشل في إقناع غيرهم بتبني الرحلة وتمويلها، وكان الملكان في سانتافي عند

أسوار غرناطة، فقصدهما ومعه صهره حامد الذي كان يرى في هذه الرحلة خلاصا له من بطش محاكم التفتيش وتهديدها الدائم لحياة أيّ موريسكي في كل لحظة..

" وانفرد مصدر موريسكي، مجهول المؤلف: أنّ حامداً كان يضمر غرضا آخر لم يكتشفه القشتاليون إلى الآن، وهو السعي للبحث عن فرصة لمساعدة إخوانه المحاصرين في غرناطة كما أوصاه أبوه، إذ كان ممنوعا على أيّ موريسكي أنْ يتحرك خارج مدينته خلال حرب غرناطة الأخيرة خشية من اشتراكهم في القتال لصالح غرناطة."

أقلعت سفن كولمبس بعد أشهر من دخول الجيوش الكاثوليكية لغرناطة، وكان حامد قد لاحظ فرح كولمبس وكارمن بهزيمة الأندلسيين، لكنه لم يبدِ لهما شيئا، ولم يبح لزوجته بسره، والتي لم تكن تعرف شيئا عن الموريسكيين ولا عما يتعرضون له، أبحر كولمبس ومعه خوان رودريغو وكارمن، وشاءت الأقدار والخبرة بالبحار أنْ يكون الملاح الأندلسي حامد المسمى خوان رودريغو، هو أول من يرى الأرض الجديدة، لذاك - تقول خيمة إشبيلية - أقام الإسبان تمثالا لحامد في إشبيلية تكريما له، قريبا من مكان الحمام الذي شيده خلال حياته ودفن في زاوية منه تجاه الكعبة شرقا، كما أوصى ابنته قمرين، وأوصاها بإخفاء معالم القبر، ومن بعده تولت قمرين إدارة الحمام حتى أغلق وهدم..

بعد هذه الإضافة أو التعديل لحكاية حامد الملاح، تدخلت خيمة قرطبة للمرة الأولى بحكاية ثانوية لكنها مهمة..

هلال القرطبي

حامد أو خوان رودريغو هو ابن الحاج هلال القرطبي الذي غادر أبوه سعيد وبعض أهله قرطبة وسكنوا إشبيلية، وفيها ولد الحاج هلال وتعلم من والده معالم الدين والقرآن والعربية، وله بعض الرسائل بلغة الخميادو في كيفية تربية الأولاد وتزكية أنفسهم في زمان النصارى، منها رسالته (الحفاظ على طهارة الأولاد بعد ضياع البلاد) وكان عاملا بما يكتب، إذ كان يعطي لولديه بدر(اسمه بالقشتالية بيدرو) وحامد، دروسا يومية، ويشدد الوصية عليهما أنْ لا يتكلما، وفي أخبار وقعت تحت أيدينا قبل دخولنا المخيم بأيّام ما كتبه بدر(بيدرو) عن كيفية اختبار والده له:

كنت صغيرا في السابعة أو أقل عندما بدأ أبي الحاج هلال بن سعيد القرطبي باختباري، أخذني إلى غرفة منعزلة آخر الدار وقال لي: لا تخبر أحدا بما سأفعله معك.. وشرع في تعليمي كيف ألفظ الآية (بسم الله الرحمن الرحيم (وكنت أعرفها، سمعتها منه كثيرا وهو يصلي بعيدا عنا وكنا أنا وحامد نراقبه من دون أنْ يعلم، وفرح عندما عرف بذلك، دمعت عيناه وقال الحمد لله وسجد، ثم بدأ تعليمي كتابة حروف كلمة بسم، طال الدرس وقتا قصيرا، فقال لنخرج، وأكد عليّ، لا تخبر أيّ

أحـــد، لا أخـــاك حامـــداً ولا حتـــى أمـــك بـــما جـــرى بيننـــا، أريـــدك أن تكـــون رجـــلا ولا تقـــل لأيّ أحـــد، أيّ إنســـان، مـــن داخـــل البيـــت وخارجـــه، ثـــم قبلنـــي وخـــرج هـــو أولاً، ثـــم خرجـــت أنـــا لكـــي لا تنتبـــه أمـــي طيـــب الله ثراهـــا، فقد ماتت حزينة مظلومة.

بعدها نادتني أمي وقالت لي:

-ماذا كنت تفعل أنت وأبوك؟

فلم أخبرها بالصحيح وراوغت في الكلام.

قالت: أنا أعرف ما فعلتما، أكان يعلمك شيئا؟

-قلت لا، ولم تفلح في جعلي أكشف السر..

عنـــدها ظهـــر والـــدي وكـــان مختبئـــا يســـمعنا واحتضـــنني، فقـــد كـــان ذاك اختبـــارا رتبـــه أبي ليعـــرف هـــل ســـأكتم السر ـــ أم أكشـــفه، وهكـــذا واصـــل تعليمـــي وتعريفـــي بتـــاريخ قرطبـــة عاصـــمة الأنـــدلس، حـــدثني عـــن أهـــل الأنـــدلس، تـــاريخهم، كيـــف اختلفـــوا، وكيـــف ضـــاعت الأنـــدلس كلهـــا بســـبب اختلافـــاتهم، قـــص عـــلي مشـــاهداته في مـــدن الأنـــدلس الأخـــرى وعـــن تـــاريخ المســـلمين، وكيـــف يعـــيش المغاربـــة، وأســـماء علمائهـــم وأمـــرائهم، كـــما ذكـــر لنـــا قـــوة دولـــة الخلافـــة العثمانيـــة وفتحهـــا القســـطنطينية وخـــوف الـــدول الأخرى منها، وعمل مع أخي حامد بنفس الطريقة.

كنا أنا وأخي حامد نتبادل المعلومات، وأحدنا يختبر الآخر، وعرفنا بعد أنْ كبرنا أنَّ أغلب المواركة كانوا يعلمون أبناءهم مثل أبي.

خيمة إشبيلية، تعقيبا على حكاية هلال القرطبي، نشرت وبسرعة حكاية مؤثرة أضاءت الشطر الأخير من قصة الحاج هلال القرطبي كما تسميه خيمة قرطبة، أو الإشبيلي كما تشير الوقائع التالية الموثقة تاريخيا..

بهو البرتقال

مع أنّه يحمل رسميا اسم كروس رودريغو، إلا أنَّ جميع سكان إشبيلية يعرفون اسمه الأندلسي هلالاً، وأغلبهم، حتى القشتاليين منهم يناديه به، وهذا نادرا ما يسكت عنه، لكنه كان تاجرا معروفا، والكثير من رجالات الدولة والكنيسة حققوا أرباحا مغرية من اشتراكهم معه في تجارته التي عادة ما تكون مع الموانئ المهمة في الساحل الإيطالي كالبندقية وجنوى وفلورنسا، كان يتاجر في أيّ شيء، ولم يتعرض يوما للخسارة، خلافاً لغيره مما مكنه من جمع ثروة كبيرة، حماها بمشاركة المتنفذين القشتاليين معه، وكان يقول لأبنائه ومعارفه الثقاة من المواركة (مالك دون نفسك، ونفسك دون دينك.)

ليبرر عمله التجاري مع القشتاليين ويحث المواركة على التمسك بالإسلام مهما قست الظروف وصعبت الأحوال، كان كثير التوكل على الله، لا يفتر عن الدعاء، ويوصي بالدعاء كسلاح ما بعده سلاح للمستضعفين الصادقين كما يقول، فرافقه التوفيق أينما توجه، حتى إنّه بزّ التجار اليهود، المارانوش، وتغلب عليهم، فاشتغلوا للإيقاع به، أنزلوا الأسعار متعمدين أكثر من مرة، وقاموا بمضاربات واحتكار للبضائع، كل ذاك ليخسر هلال ويتورط مع شركائه من القادة والقسس، لكنه كان يدرك مقاصدهم، وإذا ما تعرضت إحدى صفقاته للخسارة، كان يتحمل الخسائر لوحده، معتمدا على ما يملك، ولا يخبر

شركاءه الذين لا يعملون عملا سوى استلام الأرباح، لكنهم حين يصل إلى أسماعهم ما فعله هلال من تحمل للخسائر لوحده، تزداد مكانته عندهم ولا يتركون مناسبة دون كيل المديح لهذا الكاثوليكي المخلص، ولا يكتفي بهذا بل كان يؤمن لهم الأرباح فوق ذلك، وكان مديح القشتاليين ونجاح تجارته يزيد من عداوة اليهود المارانوش له، ومن أشدهم

عدواة وكيدا له، هو نقيب المارانوش في حي الخودرية، اليهودي المتنصر، زئيف شاليط، والذي حمل بعد تنصره، اسما مسيحيا قشتاليا، هو، خورخي خوسا، لكن خورخي هذا لم يكن يُظهر لهلال سوى المودة الزائفة والتزلف، وكان سلوكه مكشوفا لهلال، حاول مرة أنْ يناديه بالعربية هكذا:

-سباخ الخير هاج هلال، كيف هالك؟ فنهره هلال قائلا بصوت عال ليخيفه كي لا يعيدها ثانية:

-اسمع خورخي إذا كنت مسيحيا مارانوش عمدتك الكنيسة المقدسة فلا تتحدث بكلام ذهب مع أهله، ولا أظنك ما زلت يهوديا.

-لا لا، دون هلال، أرجوك لا ترفع صوتك، الحيطان لها آذان، (ثم تلفت يسارا ويمينا وقال بالقشتالية بصوت هامس) الكلام العربي أنتم أهله حاج هلال.

أدرك هلال أنّه كرّر مخاطبته بلقب حاج ليرد على التهديد بمثله وليخبره أنّه يعرف بقصة ذهابه سرّاً إلى الحج، فقال:

-لم أحج بعد إلى شانت ياغوب (سانت ياغو)، ولا تتكلم معي بغير لغة الكنيسة بعد الآن، أفهمت؟

-مفهوم، كروس رودريغو، مفهوم..

كثرت مكائد اليهود له، وفي إحدى المرات ذهبوا إلى أسقف إشبيلية ليقولوا له إنَّ كروس رودريغو، حين يجلس للصلاة في الكنيسة يقرأ آيات من كتاب المسلمين القرآن، ولا يردد الصلاة مع المؤمنين كما نفعل نحن المارانوش المخلصين لسيدنا الأسقف وللكنيسة المقدسة، غضب الأسقف واستغرب، لكنه أراد التأكّد، فأمر ابن أخت له يدعى ريغا وكان يثق به وأوصاه:

-اجلس خلف كروس رودريغو بعد أن تبدأ الصلاة كي لا يشعر بك وتنصت عليه إذا كان يتكلم بلسان الكفرة المغاربة أم لا، وتعال وأخبرني فوراً، أخبرني قبل خروجه من الصلاة، وكان الأسقف ينوي اعتقاله في الكنيسة حالا إذا صدق كلام المارانوش..

كانت أصوات المصلين خافتة وجميعهم يشتركون في الصلوات وأغلب الموريسكيين كانوا يحركون شفاههم فقط، من دون أن يلتفت أحد إليهم، لكن ريغا مد عنقه وقرب أذنه من هلال بشكل لاحظه

الموجـــودون – في الخلـــف – وفي اللحظـــة التـــي اســـتطاع فيهـــا ريغـــا الإنصـــات جيـــدا لخفـــوت صـــوت كـــروس رودريغـــو كـــان المصـــلون يرتلـــون الســـلام عـــلى ماريـــام، فـــارتفع صـــوت هـــلال مـــرتلا الســـلام عـــلى مـــريم بصـــدق ومـــن أعـــماق قلبـــه ودمعـــت عينـــه وكـــرر الترديـــد فـــرآه ريغـــا دامعـــا وســـمعه وهـــو يكـــرر السلام على ماريام، فقام ريغا إلى خاله بسرعة وهمس منفعلاً:

–كـــان يبكـــي يـــا خـــال، يبكـــي وهـــو يصـــلي للعـــذراء ماريـــام، صـــلى بلغتنـــا، أنـــا، أنـــا لم أســـمعه جيـــدا، لكـــن حتـــى لـــو صـــلى بلســـانهم، فقـــد كـــان يصـــلي بإخلاص لشفيعتنا العذراء يا خال..

بعدها علم هلال بما جرى، فقال له ولده بدر:

–هـــذه مـــن دســـائس زئيـــف الوســـخ يـــا أبـــتِ، لمـــاذا لا توقـــع بـــه وتشـــتكيه إلى شريكـــك دون فرانسيســـكو وإلى الأســـقف نفســـه، عنـــدما تســـلمه أرباحـــه؟ ألم ينتقد القشتاليين أمامك ويسخر من كنيستهم؟

–لا يـــا بنـــي، ســـيحرقونه، وإذا حـــدث هـــذا بســـببي، فســـيعذبني ضـــميري، ثـــم مـــاذا أقـــول لله غـــدا، لا يـــا بنـــي، مهـــما كنـــت مظلومـــا لا تفكـــر هكـــذا، لســـنا يهوداً ولا قشتاليين لننتقم هكذا.

بعـــدها ارتفعـــت مكانـــة هـــلال أو كـــروس رودريغـــو في إشـــبيلية فقـــد سرت الأخبـــار بـــأنَّ ابنـــه خـــوان رودريغـــو شـــارك في حـــرب غرناطـــة وأنَّ الملكـــة إيـــزابيلا إكرامـــا لـــه أرســـلته في البعثـــة البحريـــة الاستكشـــافية مـــع الجنـــوي

كـولمبس، جعـل هـذا الخـبر هـلال وأهلـه في وضـع جيـد في إشـبيلية، وخـلال هـذا أصـدرت إيـزابيلا عـام 1492 قرارهـا بطـرد اليهـود المـارانوش مـن كـل أراضي قشتالة وأراغون..

زئيـف بعقلـه اليهـودي لم يجـد مـن يأتمنـه أفضـل مـن هـلال، أموالـه، ذهبـه، ثروتـه المحمولـة ستسرـق كلهـا إن لم يخفِهـا عنـد رجـل أمـين، ويهـرب بنفسـه، فـأسرع بمغـادرة الخودريـة وهـو الحـي اليهـودي في إشـبيلية، خـرج متنكـراً، لم يجـد هـلال في داره، عـرف أنّـه في الكاتدرائيـة فقصـده، التقـاه يتمشـى لوحـده في بهـو البرتقـال، في كاتدرائيـة إشـبيلية، كـان هـلال يحـب المجـيء لبهـو البرتقـال، المكـان هنـا يـذكره بعظمـة الأنـدلس وأنفـاس أهلهـا ومـا قـرأه عـن حلقـات الـدرس هنـا تعبـق بصـدره وتمـلأ روحـه بـما يحـب، وهـو عـلى هـذه الحـال، وقـف أمامـه زئيـف متنكـرا بـزي قشـتالي وتوسـل إليـه أنْ يخفيـه عنـده كـي لا يقتلـوه، رقَّ قلـب هـلال لـه، وأخـذه معـه إلى الـدار، ولم يكـن تطبيـق قـرار الطـرد قـد بـدأ في إشـبيلية، بقـي عنـده ليلتـين، خلالهـما أنـذروا المـارانوش بـالتهيؤ لترحـيلهم عـن إشـبيلية بعـد أيـام، وكـان ابـن زئيـف واسـمه شـلومو، قـد عـرف بمكـان أبيـه وجـاء إلى دار هـلال ليطمـئن عليـه كـما قـال، لكنـه بعـد أنْ خـرج توجّـه إلى مبنـى ديـوان التفتـيش ليشي بهـلال وأبيـه، أراد شـلومو (اسـمه المسـيحي شـارل) الاسـتيلاء عـلى ثـروة أبيـه وفي نفـس الوقـت أراد أن يثبـت للكنيسـة إخلاصـه لهـا ولقشـتالة، وهكذا قبض على زئيف في بيت هلال وقبض على هلال أيضا..

صـــودر ذهـــب زئيـــف ومجوهراتـــه وســـحل مقيـــدا وأشـــبع ضربـــاً وركـــلاً، ولم يـــتم التأكـــد مـــن مصـــيره أو مصـــير ولـــده شـــلومو، لكـــن ديـــوان التفتـــيش حكـــم بـــإحراق هـــلال حيـــا لتـــآمره عـــلى قشـــتالة وخيانتـــه وارتـــداده عـــن الـــدين المقـــدس، ونفـــذ الحكـــم في إشـــبيلية علنـــا، وكـــان خـــوان رودريغـــو- ابنـــه - لم يزل في البحر مع كرستوف كولمبس.

دخـــل المخـــيم ثانيـــة في حـــراك النقـــاش الأدبي والتـــاريخي حـــول حكايـــة حامـــد المـــلاح، واحتـــدم أشـــد بعـــد أن أنزلـــت غرناطـــة حكايـــة أخـــرى تظهـــر تـــأثيرات غرناطـــة وأبنائهـــا في حيـــاة قمـــرين الإشـــبيلية، وهكـــذا يـــا صـــديقي، مـــا إن نجحـــت حكايـــة مايوركـــا حتـــى ادعـــت غرناطـــة بانتســـاب مبـــدع المايوركـــات كـــريم كاســـياس لهـــا، وحـــين أبـــدع الإشـــبيليون حكـــايتي قمـــرين وكنـــاري، دخلـــت قرطبـــة فـــذكرت أنَّ أصـــول العائلـــة تعـــود إليهـــا، وحاولـــت غرناطـــة التقليـــل مـــن تـــاريخ قمـــرين في مشـــاركتها الأخـــيرة، وبعـــد ردّ إشـــبيلية القـــوي طرحت غرناطة هذه الحكاية لتشترك بقصة قمرين عبر إبداع جديد..

بدر البشرات

يقول الأديب الأندلسي ـ حامد فيما كتبه عن تاريخ عائلته: أخبرتني أمي رحمها الله: إنَّ جدنا بدر بن الحاج هلال، والمسمى في الكنيسة (بيدرو) لم يكن موجودا في إشبيلية عند هجوم رجال التفتيش على أبيه وأخذه بالضرب والركلات مقيدا، فقد أرسله والده إلى غرناطة لتقصى ـ أخبار شقيقه حامد الذي أبحر مع كولمبس، وهناك بلغه خبر القبض على أبيه وإحراقه حيا بتهمة الكفر والهرطقة، وأنَّ أمَّه عرضت للبيع كجارية ولم يشترها أحد لكبر سنّها، وهي الآن في بيت أحد الموريسكيين، الذي آواها بموافقة الكنيسة..

ومنذ ذاك ندرت الأخبار عن مصير جدنا بدر المسمى بيدرو رودريغو، وأكَّد الكاتب الأندلسي ـ حامد: إنَّ بدراً استطاع التسلل ليرى أمه للمرة الأخيرة وكانت مريضة وقتها، ويصف احتضانها لابنها بالمبكي فقد طوقته بذراعيها الضعيفتين وكانت تشمه وتبكي وترفض تركه، بينما الموريسكي الذي تسكن عنده يطلب منها الهدوء وهو يرتجف خوفا من انكشاف الأمر، وأبت العجوز أنْ تدع ابنها، حتى

انهارت قواها وأغمي عليها، فأصرَّ الرجل على أن يخرج بدر إلى مكان آخر مهيأ لاختبائه، ريثما يتوجه بعدها إلى جبال البشرات المطلة على غرناطة حيث كان يقوم من هناك مع جماعات من الأندلسيين بغارات على كل من يصادفونه من أعدائهم..

ويقول حامد الأندلسي، إنّ بدرا بقي يجاهد القشتاليين في جبال غرناطة ووديانها، مع علي العطار وغيره، حتى اندلعت الثورة في حي البيازين في عام 1499، وقتها كان التراسل بين أهل غرناطة في حي البيازين وخارجها يتم عن طريق الحمام الذي أتقن أهالي البيازين تربيته وتفننوا في تعليمه فقد كانوا يتعاطون تربية الصقور والبزاة والصيد بها لذلك سموهم البيازين، أي مربي الصقور. وتربية الحمام والطيور عادة أتقنها بدر المعروف لشجاعته بـ بدر البشرات، ومنه انتقلت إلى أفراد العائلة حتى وصلت إلينا، وكانت على سطح حمّامنا (حمام قمرين) قبل هدمه أعداد كثيرة منها استخدمت في التراسل بين المواركة المتواجدين على أطراف إشبيلية وشاركوا في ثورة الأندلسيين عام 1568 وما بعدها..

"هامش لتوضيح النص، تقول خيمة غرناطة: هذا يدل بوضوح على أنَّ تربية الحمام في إشبيلية إنّما كان مصدره حي البيازين في غرناطة."

أمّا نهايات بدر البشرات وليس نهايته، فقد ذكروا له عدة

نهاية 1

بعد قتال عنيف خاضه علي العطار فرّ القشتاليون، وأسرت المجموعة التي يقودها بدر ثلاثة منهم وكانوا جرحى، فرفض الإجهاز عليهم متذكرا ما نقله إليه أبوه من تعاليم المسلمين لجنودهم، لا تقطعوا شجرة، ولا تقتلوا امرأة ولا طفلا ولا جريحا ولا مدبرا وغيرها، لكن

كان عليهم الاحتفاظ بهم لمبادلتهم، وكان على الأندلسيين عبور نهر حيدرة إلى الضفة الأخرى، كي يبتعدوا مسافة آمنة، وأثناء العبور وهو يحاول إنقاذ جريح من الغرق غرق هو الآخر ولم يعثر أحد على جثته.

"علق أحد المشاركين أنّ هذه النهاية غير مقبولة فنيا ولا يمكن تصديقها لشدة العداء بين الطرفين."

نهاية 2

أنّه قتل في اشتباك خلال المعارك ودفن بين صخور جبال البشرات ولا يعرف مكان قبره على الرغم من محاولات ولده خوان المتكررة في البحث عنه سرا ولعدة سنوات دون أنْ يجد لقبر والده أثراً، ويقال إنَّ ثلوج البشرات أخفته بتراكمها عبر السنوات..

نهاية 3

أنّ بدراً بقي حيا زمنا طويلا حتى أنهكت الشيخوخة والتشرد جسده فمرض، وخلال مرضه كان أحد الرعاة الإسبان يعتني به دون أن يعرفه إلى أنْ مات.

نهاية 4

وهي رواية ضعيفة تقول إنّه استطاع العبور إلى العدوة المغربية وعاش بقية عمره هناك.

لكن أحداً لم يذكر أنّه أحرق وهذا أخشى ما كان بدر يخشاه ويحذر منه، لذا كان يقاتل قتال الميت كما يصفون قتاله.

كان خوان رودريغو شقيقه، بعيدا، يأتي من رحلة ليذهب مع كولمبس بأخرى، حتى قبض عليهما، هو وكولمبس وسجنا معا، ثم أمرت إيزابيلا بأن تسجل الخرائط البحرية التي رسمها كولمبس للأرض الجديدة باسم أمريكو أحد معاوني كولمبس من البحارة الإسبان، ثم صدر عفو ملكي عنهما، وعاشا معا في إشبيلية، بعيدين عن البحر ودواوين السلطة، وهناك ماتا ودفنا، لكن كولمبس دفن تقديرا له - لأنّه من النصارى القدماء - في كاتدرائية إشبيلية، بينما دفن خوان أو حامد الملاح في الحمام الذي بناه ليعتاش منه، وإلى جواره بعد عام دفنت كارمن زوجته، وتركا ابنتهما قمرين التي ورثت حمام أبيها ثم اشتهر باسمها ((حمام قمرين)) وتزوجت من ابن عمها حفيد بدر البشرات المسمى بدراً أيضا تخليدا لذكرى جده..

"ملاحظة: إنّ اسم قمرين جاء من رغبة والدها خوان أو حامد بتخليد ذكرى والده هلال وأخيه بدر فسمى ابنته قمرين، حبا بهما، وكان كثير البكاء عليهما، خاصة شقيقه بدر الذي لم يره أبداً منذ رحلته المشؤومة مع كولمبس، فجمع اسميهما معا في اسم ابنته، قمرين أي، هلال، بدر."

(يقول الدكتور أحمد رودميرو معلقا على تسلسل الأسماء هذا:

كـأن الأمـر هكـذا – هـلال، ثـم بـدر، ثـم قمـر أو قمـرين – ولـيس واحـدا، ألـيس هـذا تشـبثا حضـاريا بالبقـاء؟ أو ردا عـلى قـرار الكنيسـة بتسـمية أبيـه كـروث أي الصـليب؟ إنّ حامـد المـلاح هنـا يؤكـد أندلسـيته، حتـى وهـو ينتصب الآن تمثالا يشير إلى أمجاد قشتالة الغابرة، كأنه يقول هكذا.)

دعنـي صـديقي أخفّـف عنـك، يـا إلهـي مـاذا أقـول؟ أي تخفيـف .. لنـترك الأمـر دون توصـيف، دعنـي أنقـل إليـك جملـة قصصـية تُركـت جانبـا كغيرهـا لاحتـدام الحكايـات حـول حمـام قمـرين، لكـن الرسـام الإسـباني يحيـى ثابـاتيرو عرضـها بـأعلى يـده حـين تحـدث الـدكتور رودمـيرو عـن الأهلـة والأقـمار، ثـم قـال ثابـاتيرو: هـذا سـبب كـل تلـك التسـميات، التمسـك الموريسـكي بـالهلال الأندلسي، كـرد حضـاري يقابـل تغطـرس قشتالة وسعيها لتنصيرهم بالصليب القشتالي..

كانوا يتطلعون

غـدا – سـيمتنعون عـن الطعـام سرا– أو بعـد غـد، ثلاثـة رجـال كـانوا، وثلاثـة صـبيان، وطفلتـين وكـانوا – غربـا – يتطلعـون لرؤيـة الهـلال، فلـم يـروا الخيـول وهـي تحـط علـيهم.. بعـد يـومين فقـط، وشـموا جبـاههم بالصليب، وفي عيد الميلاد أحرقوهم..

النهايـات مؤلمـة كـما هـي البـدايات، أي أقـدار سـبح المواركـة في مياههـا، صـديقي المشرـقي، وسـط هـذا الاحتـدام في المخـيم بـدا واضـحا لنـا، والـدكتور رودمـيرو أول مـن نبـه إليـه، أنَّ الأنـدلس بجميـع بلـدانها ومـدنها

وقصباتها اشتركت في تاريخها، صاغته معا، شاءت أم أبت، كل أحداثها رسمت مصيرها، فعاليات الخيام تؤيد هذا، وهو أيضاً حال عائلة قمرين، كأن سيرة تلك العائلة حيكت لتصوغ حكاية الأندلس كلها، من ساحل باسكايا أقصى الشمال، إلى الجزيرة الخضراء جنوبا، ومن كتالونيا إلى إشبيلية مرورا بقرطبة وغرناطة وطليطلة والآسرات من مدن الأندلس وقصباتها..

نهايات مؤلمة حقا، وربما آن لمخيمنا أنْ ينتهي أيضا، كما انتهت الأندلس، ربما،

رأي تداوله بعض المشاركين هنا، لكن لم يؤخذ به فتواصل الإبداع واستمرت الحكايات..

خيمة مدريد

كان الأصدقاء في خيمة مدريد معنا في أغلب الاحتفالات القصصية، وشيئا فشيئا تركوا في نفوس الآخرين ارتياحا لذائقتهم الفنية والأدبية المرهفة، كانوا أربعة، كلهم من سكان مدريد، وكلهم ولدوا وعاشوا في مدريد أيضاً، لكن كارمن وهي المرأة الوحيدة بينهم، كثيرا ما تتردد على البرتغال، فأمها من هناك، ولم تزل تعيش قريبا من سانتا فاتيما (أي القديسة فاطمة)، وكانت أغلب لوحاتها تستمد مشاهدها من ضريح سانتا فاتيما، الأطفال الذين تجلت لهم العذراء، ووجوه الحجاج المسيحيين الذين يقصدونها من أماكن بعيدة، وكارمن ليست وحدها الرسامة في خيمة مدريد، الأربعة جميعا رسامون، يحيى المدريدي، كما يحب أنْ يسمى، مهتم بالمنمنمات والأرابسك العربي، وأنجز إبداعات ذات شأن حين زاوج بين المنمنمات الشرقية وبين فن البورتريه بأسلوب جديد ومغاير لم يسبقه أحد إليه، ويحيى كالدكتور رودميرو، كان كاثوليكيا ثم أسلم، لكنه إسباني الجذور، وقشتالي تحديدا، والفنون الشرقية والعربية هي التي أسرته وجذبته للتعرف على بيئة العرب والمسلمين، حتى غاص أعمق وتعلق قلبه بالإسلام، فغير اسمه من جون ثاباتيرو، إلى يحيى ثاباتيرو، أو، يحيى المدريدي، وجون تعني بالقشتالية، القديس يحيى كما يقولون..

وحـــده يحيـــى كـــان مســـلما، والثلاثـــة مســـيحيون، كاثوليكيـــان همـــا كـــارمن وخوان بينيكاس، وبروتستانتي هو ماتيو توريش..

عائلـة خـوان بينيكـاس سـكنت مدريـد مـن خمسـين عامـا، وهـي تنحـدر مـن أجـداد موريسـكيين كـانوا يعملـون في حقـول الباسـك كعبيـد بعـد أسرهـم أو اسـتعبادهم في غرناطـة ونقلهـم للخدمـة في مـزارع الكنيسـة في سـان سباسـتيان، قريبـا مـن خلـيج بسـكايا ومـن جبـال البـيرانس عنـد الحـدود الفرنسـية، كـان عـددهم بالمئـات كـما يقـول بينيكـاس اسـتنادا لمرويـات متوارثـة في العائلـة، وقـد جـازف بعضـهم بعبـور الجبـال الشـاهقة هـاربين إلى فرنسـا مـن اضـطهاد عـمال الكنيسـة وآخـرون هربـوا إليهـا عـبر البحـر، أغلـب الفـارين لقـي حتفـه، عـدا قلـة مـنهم مـا زال بعضـهم يحـتفظ بأخبـار بعيـدة عن أجداده الموريسك..

خـوان بينيكـاس يـرى أنّـه مـزيج مـن البشـكنس والموريسـك المطعـم بالكاثوليكيـة المنفتحـة عـلى الجميـع كـما يصـف نفسـه، ويقـول مبتسـما: أنـا أجمـع صـفات إسـبانيا كلهـا، مـواطن إسـباني بامتيـاز، وكانـت لوحـات بينيكـاس غالبـا مـا تتنـاول السـفن ومنـاظر البحـر ووجـوه عـمال التجـديف المربـوطين بالسلاسـل، ويهـتم أيضـا برسـم أشـكال لوجـوه وأجسـاد منهكـة أو منهارة على امتداد طرق طويلة..

أمّـا مـاتيو تـوريش، فقـد كـان لأمّـه الألمانيـة الجميلـة إنجـيلا تـأثير عـلى أبيـه الـذي تعـرف عليهـا خـلال دراسـته في فرانكفـورت وأحبهـا بجنـون

وتزوجهـا، فولـد مـاتيو في بيـت مدريـدي بصـبغة جرمانيـة وكـان الأبـوان يتكـتمان قلـيلا عـلى بروتسـتانتيتهما، إلى مـا بعـد عـام 1975، حيـث جـاهرا بهـا ولم يعـودا يهـتمان لانتقـادات المتعصـبين الكاثوليـك في المجتمـع الإسـباني .

رسـومات تـوريش تتنـاول الطبيعـة الجميلـة والثلـوج والمنـاظر الهادئـة كـما يغلـب عليـه اسـتخدام الألـوان البـاردة المحـلاة بظـلال مـن الحمـرة الخفيفـة أو الاصفرار الخافت المريح.

خـلال أغلـب الاحتفـالات القصصـية قـدم الأربعـة، تخطيطـات أوليـة، اسكتشـات ومشـاهد وبورتريهـات، تصـور البعـد المجسـد والمتخيـل لمضـامين الحكايـات، حتـى نضـج عنـدهم كـما قـالوا مشـروع لإنجـاز لوحـة تحتـوي الحكايـات كلهـا بطريقـة مـا، قـد تعتمـد الإشـارات أو الإيقونـات الدالـة وأحيانـا انبسـاطا أوسـع لتجسـيد الحكايـات وتقـديمها مشـاهد مرسومة للناظرين..

وهكـذا انسـحبوا تـدريجيا مـن الفعاليـات غـير القصصـية في المخـيم وبـدأوا بتنفيذ لوحتهم.

كنـت يـا صـديقي كـما المغفـل، فمـع مـواكبتي لكـل خطـوات إقامـة المخـيم مـذ بـدأ عنـدنا، أنـا ورودمـيرو، مجـرد أفكـار وإلى الآن ونحـن نقـترب مـن نهايتـه غـير الواضـحة لي، مـع هـذه المشـاركة الفاعلـة والمواكبـة والحضـور القـوي الـدائم منـي، إلا أنّنـي بـدأت أدرك أنَّ الـدكتور أحمـد رودمـيرو، رسـم كـل

شيء من البدء وتحكم بي من دون أن أشعر، وكل ما رسمه يسير الآن وفقا لما خطط، فقد أدرك الآخرون مثلي، أنَّ اللوحة الرئيسة لرسامي مدريد ستكون المشهد الختام لاحتفالات المخيم وفعالياته، وأنا حتى في هذا ما زلت قارئا رديئا لما يجري، لكن صديقي رودميرو أقسم لي أنّه لم يرسم في ذهنه تفاصيل دقيقة للمخيم، لكنه خطط فقط الملامح العامة لمساراته، كما توقعها، وأراد لها أن تتجلى ضمن إطار يمكن من فرط شفافيته تجاوزه أو الرجوع إليه، من دون أنْ يؤثر هذا في مسار المخيم أو يترك أثراً ما..

كشف لي اعترافه، فقر مخيلتي قياسا إليه، وجعلني أقرب إلى تلميذ يتلقى أفكاره ويؤيدها، ومنها – طبعا – ما سربه عبر النقاشات والمداخلات إلى خيمة مدريد حتى اختمر عندهم مشروع اللوحة الختام ونضج..

أدعك الآن في تشوقك إلى لوحة المدريديين، وأرجو أن لا تعتبرني مغفلا فعلا إلى حد كبير، لست كذلك أكيدا، فقط أذكر لك الوقائع خالية من الرتوش، لترى بنفسك وتخلق ما تشاء بمخيلتك . سأعود قريبا، في أمان الله.

السلام عليكم، سأقص عليك اليوم ما نشرته خيمة مدريد تمهيدا على ما يبدو لمشروعهم الرئيس، كان على شكل تخطيط أولي له، ولكن بلغة السرد لا الرسم..

يحيى المجريطي

يقول يحيى أو جون ثاباتيرو: كنت كاثوليكيا لا يفارق حضور القداسات والصلاة في الكنيسة وغيرها من الاحتفالات الدينية وكنت مولعا بإعادة رسم اللوحات المسيحية الكلاسيكية كصورة العذراء مريم وطفلها ونظائرها، عدا لوحة العشاء الأخير فقد كنت رغم انبهاري بها مترددا برسمها لانتقاد الكنيسة لها إذ أظهرت السيد المسيح في جو دنيوي صاخب وأمام مائدة عامرة بالملذات والمباهج كالخمور وغيرها من أطايب الطعام والشراب، وهكذا بقيت وبقيت قدراتي الفنية محدودة لا تجتذب المشاهدين ربما لكثرة تكراراها على مرّ السنين، هكذا ظننت، لكن ملاحظتي لاهتمام زوار المتاحف والمعارض بلوحة العشاء الأخير وغيرها مما كنت أبتعد عنه من لوحات، جعلني أعيد قراءتي وآرائي، حللت العشاء الأخير واكتشفت سحر الفن وغنى الخيال فيها، ثم درست لوحات دافنشي الأخرى، كالموناليزا، كما تأملت أعمال غيره من الفنانين الكبار، تغيرت ذائقتي وصرت جديدا حتى على نفسي وأعمالي السابقة، وثمة محطتان خلال تجوالي مع الرسامين ولوحاتهم كان لهما أثر في تحولاتي ومراجعاتي لثوابتي ومعتقداتي حتى رسوت أخيرا على شاطئ الأندلس..

الأولى: كانت مع بروجل ولوحته (أمثولة العميان)، أدهشتني هذه اللوحة وغيرت في حياتي كثيرا ليس على المستوى الفني، غيرت أفكاري

ونظـرتي إلى الحيـاة، كنـت أتسـاءل، مـن يـدري لعـلي مثـل عميـان بروجـل، لسـت أكثـر مـن أعمـى يقـوده عميـان، لا أعـرف إلى أيـن أمضي، ومتـى أسـقط في الهاويـة، لوحـة بروجـل الهولنـدي تمثـل سـتة عميـان، يسـيرون واحـدا بعـد الآخـر، الأعمـى الأول يقـودهم، وكلهـم يمسـك بعصـاه، لكـنهم جميعـا يرتبطـون ببعضـهم عـبر إمسـاك كـل واحـد مـنهم بعصـا الآخـر، حتـى بـدوا وكـأنهم يمسـكون بعصـا طويلـة واحـدة، كـان الأول، قائـدهم قـد سـقط في حفـرة، والثـاني انجـرّ مـع السـقطة وهـو في اللوحـة عـلى وشـك السـقوط، وهكـذا الثالـث بدرجـة أقـلّ، وكـان العميـان الآخـرون يتجهـون إلى السـقوط منقـادين خلـف قائـدهم مـن دون أن يعلمـوا مـا يجـري، ملامـح الرعـب والفـراغ عـلى وجـوههم، ويتحركـون كالـدمى، هـزني بروجـل، كأنـه يخـاطبني بلوحتـه هـذه، ومـن حينهـا لم أعـد أثـق بمسـلماتي وثـوابتي الفكريـة، كـل شيء في داخـلي تحـرك، كـأن اهتـزازا مـا جعلـه يتحـرك، وبـدأت رحلـة بحـث عـن حقيقتـي ومنهـا، بـل في مقـدمتها، تـاريخ وطنـي الحبيـب إسـبانيا، ومـوقفي الصـارم المتشـدد مـن كـل مـا هـو غـير إسـباني وغـير كـاثوليكي، أعـدت قـراءة تـاريخ الأنـدلس والـدور الحضـاري للمسـلمين في حياتنـا، فقـرأت للمـؤرخين باروخـا وكونـدي وللأمريكـي واشـنطن إيرفنـغ الـذي فاجـأني بحياديتـه أو بانحيـازه المقنِـع للأندلسـيين وحضـارتهم، قـرأت أيضـا القصـائد السـورية لشـاعرنا الإسـباني الكبـير أنطونيـو غـالا، وغـدا الجنـاح الأندلسي والموريسـكي في الأسـكوريال محطتـي اليوميـة لسـاعتين أو أكثـر حسـب مـا يسـمح بـه عمـلي

في الغـــاليري، ويومـــا مـــا، وقـــع قلبـــي قبـــل يـــدي عـــلى مخطوطـــة موريســـكية مترجمـــة إلى الإســـبانية وقـــد وضـــع الأصـــل المكتـــوب بلغـــة الخميـــادو الخاصـــة بالموريســـكيين ونـــص الترجمـــة في مجلـــد واحـــد، رســـمت عـــلى غلافـــه معـــالم أندلسية، جانب من الحمراء ورجال بعمائم وكتابات، وغيرها.

كانـــت تلـــك المحطـــة الأولى في تحـــولاتي نحـــو الأنـــدلس كـــما يحلـــو لي أن أصـــفها، أمّـــا المحطـــة الثانيـــة والأهـــم عنـــدي، ومنهـــا حملـــت هـــذا الاســـم، يحيـــى المدريـــدي، فتعـــود إلى تلـــك المخطوطـــة وهـــي لمـــؤلفين كلاهمـــا اســـمه حامـــد، هكـــذا علـــق المـــترجم ويقـــول إنهـــما معـــا يحمـــلان لقـــب حامـــد الأندلسي ـ وهمـــا قريبـــان عـــلى مـــا يبـــدو، إذ بـــاشر الثـــاني إكـــمال مخطوطـــة الأول التـــي تركهـــا ناقصة، وكان يسميه بخالي ويذكره بعبارات الاحترام ويترحم عليه..

بنات الأندلس

يقـــول حامـــد الأندلسي ـــ: إنَّ الرســـام الأندلسي ـــ يحيـــى المجريطـــي (مجـــريط الاســـم العـــربي لمدريـــد) كـــان في القـــاهرة حـــين شـــهد مبـــاراة في الرســـم جـــرت أمـــام وزيـــر الســـلطنة في مصر ـــ وقتـــذاك، جـــرت المبـــاراة بـــين رســـام مصرـــي اســـمه بـــن عزيـــز، كـــان قـــد تحـــدّى براعـــة منافســـه الـــذي جـــاء إلى القـــاهرة هاربـــا من بطش صاحب الشرطة في بلاده بغداد، بالقول:

-مـــولاي وزيـــر الســـلطان المعظـــم، سأرســـم بعـــد إذن مـــولاي صـــورة حيـــة لـــ "دلال "هـــذي الواقفـــة الآن أمـــام مـــولاي (كانـــت الجاريـــة الجميلـــة واقفـــة

وهي تحمل بيدها إبريقاً وكأسا لتسقي سيدها ماء) سأرسمها تخرج من هنا عبر هذا الجدار الذي أمامكم وسترونها وكأنها تدخل حقّاً فيه.

أبدى الوزير إعجابه بما قال بن عزيز، ثم التفت إلى الرسام العراقي واسمه قاسم.

-وأنت أيها العراقي، ما عندك إزاء رسام قاهرة المعز لدين الله، بن عزيز؟

-إذا أذن لي مولاي الوزير فسأرسم ذات الجارية وهي تخرج من الجدار داخلة إلى هنا، وسترى مولاي أنها هي بلحمها ودمها وبأرديتها هذه وبخمارها ستدخل.

ها، أبدى الوزير السلطاني تعجبه أكثر.

-كم يوماً يكفيكما؟

-ما يراه مولانا وزير السلطان، قال قاسم العراقي.

فتنحنح بن عزيز ثم قال: أسبوع من الآن يا مولاي، لأنَّ جارية مولانا وزير السلطان تستحق وقتا أطول واهتماما أكثر مما أبداه ضيفنا الذي لا يعرف قدرها عند مولاي، وكذلك يا مولاي ليعرف الخبر جميع رعايا مولانا السلطان في القاهرة وما حولها ويحضروا العرض.

كان قاسم قد سمع تهكم الناس في القاهرة وانتقادهم لما يكنّه وزير السلطان من هيام بجاريته دلال، وأوشك أنْ يرد على كلام بن عزيز، لكن صوت الوزير أسكته وهو يقول:

-هذا أفضل، لنرى، على بركة الله وقام إيذانا بالانصراف.

"قاسم كان يدعى في بغداد بـ "قاسم الكرخي"، وكان كثير التعريض والانتقاد لكبار الدولة هناك، خاصة الخليفة الضعيف وكان يردّد دائما بيت الشعر المعروف:

(خليفة في قفص بين وصيف وبغا يقول ما قالا له كما تقول الببغا)

وكذلك بيت المعري

(يسوسون البلاد بغير علم فينفذ حكمهم ويقال ساسة)

(فأفّ من الحياة وأفّ منهم ومن زمن رياسته خساسة)

وكان هذا سبب هربه من بغداد بعد أنْ أمروا بصلبه ولجأ إلى القاهرة فوجد أنَّ حال الحكام في القاهرة لا يختلف كثيرا عن بغداد / هامش من المشارك العراقي في المخيم.

رفعت الستارة عن لوحة بن عزيز وانحبست الأنفاس، كانت دلال الجارية تخرج من القاعة بتغنج ودلال كأنها ترقص، وبانت تقاطيع جسدها ومفاتنه بشكل حي مثير للإغراء، وظن الحاضرون ومنهم

الـوزير السـلطاني وحاشـيته أنّهـا هـي فعـلاً مـن تمشي ـ خارجـة عـبر الحـائط وليـس صـورتها، فارتبـك الـوزير وقـام كأنـه يريـد أنْ يتبعهـا، هـم بـذلك لكنـه انتبـه لنفسـه وتوقـف، وقامـت حاشـيته والحـاضرون جميعـا لقيامـه، وتعالت صيحات الإعجاب.

تقـدم بعـدها قاسـم، تقـدم في أنـاة، تطلـع في وجـوه الحـاضرين، كأنـه يستعرضـها، فانشـدّت الأنظـار أكثـر، ثـم أزاح السـتارة عـن لوحتـه بـبطء وهـدوء، وشـهقت أنفـاس الحـاضرين، أيّ سـحر هـذا، دلال التـي خرجـت قبـل قليـل بـدلع وتـراقص، هـا هـي تـدخل الآن عـبر الحـائط ذاتـه بأرديـة طويلـة، تمشي ـ مشـيتها لكـن بـاحترام لمـن تمشي ـ إليـه، حركاتهـا تـوحي بالحشـمة والوقـار، هـي هـي، دلال نفسـها، مـن دخلـت علـيهم، وتعالـت همهـمات الإعجـاب، لكـن الـوزير الـذي وقـف ثانيـة انبهـاراً بـما يـراه، وبعـد أنْ تجـاوز لحظـات الانـدهاش، اسـتغرب أنَّ قاسـماً وهـو يعـرض لوحتـه أسـماها (سـلام) وليـس (دلال)، وكتـب هـذا الاسـم رسـما عـلى خمارهـا بشكل لافت وذكي ..

أخذ السلطان وقتا ليتمالك نفسه، ثم سأل قاسم ببرود:

-ما الذي دعاك لتغيير اسم جاريتنا دلال؟

-هيبـة سـلطان المسـلمين في الـديار المصرـية يـا مـولاي، دعتنـي لاختـار هـذا الاسم، السلام هو الأليق بكم مولاي الوزير.

أعجبته شجاعة العراقي وفصاحته، وفهم تلميحاته، لكنه استغرب من جرأته، وتجرعها على مضض، فأشاح عنه بوجهه وأمر باستطلاع رأي المحكمين، على أنْ يكون القول الفصل له.

قال المحكمون رأيهم بنقاط..

-1إنّ كلتا اللوحتين نالت الدرجة القصوى في الفن والصنعة والسحر الجميل.

-2إنَّ الرسام العراقي كان لبيباً باختياره لرسم الجارية وهي تدخل فلا يكون ظهرها بوجه مولانا وزير السلطان، وهذا ما فات بن عزيز الالتفات إليه.

-3لما كان الرسمان متساويين في الصنعة وإيهام الناظر بحياة الجارية وكأنها حقّاً تمشي وتتحرك، فإنَّ الغلبة تكون لمن رسم الجانب الأصعب وهو هنا ظهر الجارية لا مقدمها، ومع أنَّ بن عزيز استعان بالتفاتة غنجة من وجه الجارية، إلا أنَّ الدرجة هنا لصالحه.

-4إنّ بن عزيز وضع جهده في الفن والصنعة فقط ولم يلتفت لتأثيرات الرسم على الناظرين وسلوكهم، بينما انتبه قاسم العراقي إلى الأبعاد الأخلاقية في لوحته وطبع بصمات مهذبة على أذواق النظارة، من خلال سلوك الجارية وملابسها المحتشمة، مما يجعل الغلبة له في هذا الجانب.

-5لكن الرسام قاسم تجاوز حدوده باختيار اسم للجارية دلال غير الاسم الذي اختاره لها بنفسه مولانا الوزير السلطاني، ونوصي بمحو الاسم من على الرسم، واعتذار الرسام عما فعل.

اطلع الوزير على آراء الحكام وأعجب بها بينما عينه ترمق اللوحتين حينا وآخر. أدرك الوزير أنّ كلا من الرسامين كان انعكاسا للبيئة التي عاشها..

فأمر أمام دهشة حاشيته بالجائزة متساوية لهما، وهمس بأذن صاحب الشرطة أنْ يصرف العراقي مكرما بعيدا عن القاهرة، ثم انصرف إلى جناحه الخاص وخلفه حُملت اللوحتان الساحرتان.

شهد يحيى المجريطي المباراة وانطبعت تفاصيل الجارية بصورتيها في ذهنه، كان في أوائل تعلّمه لفن الرسم والتصاوير، لكنه كان بارعا في رسم المنمنمات والزخرفة بالأشكال الهندسية المتناظرة والمتداخلة والمتقابلة ومبدعا فيها، وحتى بعد عودته إلى تطوان على الساحل المغربي، وهي من منافي الغرناطيين بعد سقوط مملكتهم، كان يوم المباراة ملازما لخياله، فانزوى لإعادة رسم اللوحتين، مستولداً دقائق مشاهدهما من ذاكرته وإبداعات خياله، أنجز أولاً لوحة بن عزيز، لكنّه اشتغل وجها آخر للجارية، وجها ضمنه أمارات الجمال الأندلسي، الملائم بين عذوبة اللون العربي وحنطيته الآسرة وبين بياض العنصر الأوربي وشقرته الجاذبة، سعى يحيى لعجن ملامح الأندلس وإيبريا

والإفرنج معا، ثم غدت الجارية عند يحيى ثلاث فتيات أندلسيات يرتدين أزياء الأندلس الزاهية بأصباغها وتغطي رؤوسهن باقات، بثلاث أو أربع وردات نضرات، رسم إحداهن تحمل باقة أزهار كبيرة، كن يمشين معا ويتضاحكن وهن يخترقن الحائط خارجات بمشيتهن البريئة المرحة، كأنهن كن يعبرن غلالة من البخور الهندي أو ستارة شفافة من الهواء الملون وهن يخرجن..

ثم أكمل بعدها لوحة الرسام قاسم، وجعل البنات الأندلسيات يدخلن تجاه الناظر من خلال الحائط نفسه وبالهيئة الأولى ذاتها، إلا أنَّ وجوههن كلها بانت للمشاهد ومنها شعت ملامح الجمال الأندلسي الأخاذ، كانت أعمارهن لا تتجاوز الثانية عشرة وكن مغطيات الشعر بشالات من الحرير الغرناطي الملون والمشبع بالخضرة الخفيفة الرائقة والاصفرار البهيج، مما أضفى على حركاتهن مسحة من الطفولة الفرحة والسعادة..

وما إن انتهى من اللوحتين حتى برق ذهنه الوقاد عن فكرة مبدعة أذهل الأندلسيين التطوانيين بها..

وضع الفنان الأندلسي يحيى المجريطي اللوحتين معا ظهرا لظهر واحكم شدهما معا بحيث بدت لوحة بوجهين، كالعملة (طرة وكتبة) الأول للأندلسيات وهن يخرجن والثاني لهن أيضا وهن يدخلن ويواجهن الناظر بوجوههن، ثم ربط اللوحتين معا من الأعلى بحبل من حبال الأشرعة القوية المرنة وصبغه حلزونيا بألوان متناسقة من الأزرق إلى

البنفسجي فالاحمر فالبرتقالي ثم الأصفر فالأخضر فالأزرق وهكذا، لتبدو حركة الحبل لوحدها وهو يعود إلى وضعه الطبيعي بعد برمه بشدة، حركة ألوان تطارد بعضها وتتمازج معها، لكن هذا وإنْ نال إعجابهم لطرافته وجدته، لكنه لم يثر الأندلسيين كما إثارتهم وهم الذواقون للفن ولم يزل عهدهم بالأندلس قريبا وحنينهم إليها يملأ قلوبهم وحياتهم كلها، حركات الخروج و الدخول الوادعة المتتالية بتريث ومهل للبنات الصغيرات، يرون البنات يخرجن كأنهن يومئن لهم بالوداع ثم يطللن عائدات مع الدوران الهادئ للوحة، وهن باسمات ولاهيات، فترتفع صيحات الإعجاب والثناء للرسام الأندلسي المبدع كأنما كانوا في ذاك الزمان البعيد يشاهدون فيلما سينمائيا متحركا..

قريـة السمّـاكيـن

عنـد الطـرف الجنـوبي للمريـة، عـلى السـاحل تمامـا تنتشـر بيـوت لصـيادين مواركـة، يقـال إن بعضـهم يتحـدر مـن عائلـة بنـي حمـود الأدارسـة، وكـانوا كـما هـو حـال أهـل الأنـدلس الموريسـكيين يكتمـون إسـلامهم ويعلّمونـه، بـل يرضـعونه لأولادهـم سرّا، يمـنحهم بعـد قـريتهم عـن المريـة واعـين الرقبـاء حريـة أوفـر في إقامـة شـعائرهم الإسـلامية، وهكـذا اعتـادوا أول كـل شـهر قمـري خاصـة مـع إطلالـة رمضـان ووداعـه وشـهري الحـج ومحـرم أنْ يتطلعـوا جهـة الغـرب لرؤيـة الهـلال، كـي يبـدأوا صـومهم أو يحتفلـوا بالعيـدين الفطـر والأضـحى أو يبـاشروا شـعائر الحـزن عـلى مأسـاة عاشـوراء، ولم يحـدث مـن قبـل أن اكتشـف القشـتاليون أفعـالهم، إلا في اليـوم الـذي ترسـمه الجملـة السرديـة، فقـد حسـبوا أيـامهم بدقـة، وكـان هـلال رمضـان متوقعـا الليلـة أو ليلـة غـد، فخـرج جماعـة مـنهم إلى أعـلى تـل قريـب مـن قـريتهم، كـانوا أكثـر مـن عشـرين رجـلا مـع أولادهـم، لكـن جنـود الملـك أدركـوا الـذين ذكـرتهم القصاصـة فقـط، وأذاقـوهم عـذابات بشـعة، فقـد مـات بعضـهم قبـل إحراقـه، عـرف أهـالي القريـة أنَّ الحمـدي وكـان في السـتين مـن عمـره زفـوه مـرتين إلى تـابوت العـذراء الجميلـة نكايـة بـه، ففـي أرضـية التـابوت اللعـين صـورة حسـناء شـبه عاريـة بثـوب الزفـاف وهـي تمـد ذراعيهـا كأنهـا تريـد احتضـانك، فـأدخلوا الحمـدي عليهـا وطرحـوه في التـابوت عـلى وجهـه كـي يحتضـن عـذراءهم اللعينـة، لكـنهم لم يطبقـوا التـابوت عليـه جيـدا لكـي لا يتمـزق جسـده كليـا بسـكاكين

التابوت، إمعانا في تعذيبه، أخرجوه داميا يئن ثم أدخلوه ثانية حتى تمزق رحمه الله ومع أنّه كان ميتا إلا أنهم رموا بجثته في النار مع الآخرين، قيل إنهم عذبوه هكذا لمعاندته لهم وإصراره على ترديد الشهادة إلى آخر لحظة، وكانت إحدى الطفلتين ميتة أيضا، أقاموا الاحتفال في الميدان العام في المرية وساقوا قرية الصيادين كلها لتحضر الاحتفال، عرضوا الأحياء أولا ثم قرأوا لائحة الاتهام، اتهموهم بأنّهم كانوا على التلة ينتظرون مجيء قوارب القراصنة الأتراك (طبعا كانت وجوههم إلى الغرب كي يروا الهلال، أي تجاه غرناطة تقريبا وليس إلى البحر كما ذكر الراهب وهو يقرأ الاتهام). كما اتهموهم بأنهم يمارسون الشعوذة والتنجيم بتطلعهم للنجوم، ثم جرجروهم وكانوا مقيدين، وقد شوهت الكدمات وجوههم، كووا جباههم واحدا بعد الآخر بحديدة متجمرة، ووشموا عليها علامة الصليب، وكانت صيحات الاستحسان الهستيرية تدوي، كان منظر الصغار مفزعا يفطر القلب، وقد أكد أهل القرية أنَّ العديد من المسيحيين الحاضرين بكوا، وكانوا يمسحون دموعهم لئلا يراهم أحد، صرخت أم الصبيين أحمد وجعفر حين باشروا كيَّ ولدها جعفر، صرخت من أعماق قلبها وسقطت، فهب الجنود إليها وسحلوها، لكن القس منع إلقاءها بالنار، قائلا يجب عرضها على الديوان المقدس أولاً وأخذت ولم يعرف بخبرها بعد ذاك أحد، بعدها بدا الاحتفال المقدس، رموا جثة الحمدي أولاً ثم الصبية

الميتة ثم الآخرين واحدا بعد الآخر ولم يصدر عنهم أي صراخ أو صوت فقد كانت أفواههم مكممة ومحشوة بالقماش..

تلك الأيام من شهر رمضان كان أهل المرية وخاصة قرية السماكين تتراءى لهم أشباح الأطفال كالملائكة وكان فطورهم يمتزج بالدموع.

صديقي العزيز، كنت أخبرتك في رسالة سابقة أنّ هناك إضافة من الهولنديين، كورنيلوس وزوجته فيرونيكا، بصدق نسيتها، لكن الآن وأنا أراجع رسائلي إليك قرأتها، إليك الآن تلك المشاركة الهولندية وهي مهمة لسد ثغرة في سردياتنا وستربط بين حكايتين لخيمتي غرناطة وإشبيلية..

حرير مارتينو

يقـــول الهولنـــديان، أنهـــما اطلعـــا في أوراق بيـــتر باســـتن المحفوظـــة ضـــمن أرشـــيف شركـــة الهنـــد الشرـــقية الهولنديـــة عـــلى مـــا جـــرى بـــين مـــاركوس الغرنـــاطي وبيـــتر باســـتن في الليلـــة التـــي قـــررا فيهـــا الهـــرب مـــع لارنكـــا البروتستانتية وابنتيها..

كتـــب باســـتن: اختـــتلى مـــاركوس بنفســـه، لم يبـــق عـــلى خروجنـــا ســـوى ســـاعات، كـــان مخططنـــا أنْ نخـــرج جميعـــا مـــاركوس وعائلتـــه ولارنكـــا وابنتاهـــا، وأنـــا معهـــم ببضـــائعي وأوراق ســـفري الإيطاليـــة كـــي أوفـــر غطـــاء لهـــم إذا اعترضـــنا الجنـــود، وســـيتولى مـــاركوس إذا وصـــلوا أرض المغاربـــة ترتيـــب نقـــل لارنكـــا وابنتيهـــا عـــلى ظهـــر ســـفينة إلى هولنـــدا، حيـــث زودتهـــا برســـالة إلى أمـــير أورانـــج، أمـــا أنـــا فســـأعود ببضـــاعتي بمجـــرد إبحـــارهم، كنـــت قلقـــا، ســـألت ميشـــيل أو محمـــداً عـــن أبيـــه، قـــال لي يصـــلي، وســـمعته يرتـــل بصـــوت حـــزين، يتقطـــع ببكائـــه وتضرـــعاته، كـــان يقـــرأ القـــرآن ويصـــلي، انتظرته بصبر صعب، ثم جلس إلى جواري وقال:

-اســـمع أخـــي باســـتن، سأكشـــف لـــك سرّا لا يعرفـــه في غرناطـــة أحـــد ســـوى زوجتـــي فاطمـــة، مـــا أرجـــوه أن تكـــتم السرـــ حتـــى نصـــل إلى العـــدوة المغربيـــة، بعـــدها، ســـكت قلـــيلا ثـــم أردف، أحتـــاج مســـاعدتك، أعـــرف أني ســـأتعبك لكني مضطر لذلك.

-لا عليك أخي ماركوس، لا عليك، قل ما تريده وسأبذل جهدي لمساعدتك.

أولاً، سأروي لك قصتي: أنا من إشبيلية، اسمي الأندلسي ـ بدر، وفي الكنيسة عمدوني باسم بيدرو، ولجأت إلى غرناطة هاربا من بطشهم لقد اعتقلوا أبي أمامي لكنهم لم يروني، كنت في حجرة مجاورة فأعماهم الله، سحلوا أبي إلى خارج الدار، وأخذوه إلى محكمة التفتيش، كان لا يحب الاختلاط بالناس ولم يفعل شيئا، لا أدري لماذا اعتقلوه، يقال إنّه اعتقل بسبب صديق له اسمه علي الخير، عرفته فيما بعد وعشت معه زمنا، ما زال حيا مرابطا في الجبال، وهو من نسل السادة الأدارسة، أحفاد النبي الأمين، وبعد ساعة من أخذ أبي عادوا للبحث عني، طلبوني بالاسم ولطموا زوجتي قمرين على وجهها، كسروا فكها، فأغمي عليها، كنت قد خرجت واختبأت عند صديق نصراني، لا أدري إنْ كان موجودا الآن أم لا، اسمه الونزو، كبرنا معا مذ كنا صغارا، وكنا لا نفترق، لكن أهله أبعدوه عني بطلب من القس، كي لا تتنجس روحه بسببي كما قال لهم، ومع هذا، كان يختلس الفرص للقائي، عندنا حمَام، ورثته زوجتي من أبيها، وهو بمنزلة عمي، لعلك سمعت به، هو الملاح المعروف باسم خوان رودريغو، أوّل من رأى أرض العالم الجديد، كان مع كولمبس في تلك الرحلة البحرية الشهيرة، هل سمعت به؟

-أجل سمعت عن رحلة كولمبس.

-كنا كلما جاء الونزو نصعد إلى سطح الحَمام، وكنا نجلس لساعة أو أكثر قرب قن الطيور ثم يعود إلى أهله، واستمرت علاقتنا إلى أنْ تزوج كل منا، وحين أخذوا أبي، كانت علاقتي بالونزو شبه منقطعة، ولم أكن قد التقيته منذ شهور، لكني مع هذا، قصدته، لم أجد مكانا آخر أذهب إليه، الكل يخاف انتقام الكنيسة إذا وجدوني عنده، كما أنهم سيبحثون عني في بيوت الموريسكيين، لذا ذهبت إليه، قبل أنْ أدخل داره أخبرته بكل شيء، فأدخلني من الباب الخلفية لداره وأخفاني عن زوجته، بقيت عنده ساعات، أعطاني ثلاث دوقيات ذهبية ورسالة إلى صديق له في فالنسيا، شكرته وأعدت النقود إليه، كان معي ما يكفي، فقط أخذت الرسالة، رافقني الونزو حتى خارج إشبيلية، ثم عانقني طويلا وافترقنا، فقصدت قرطبة أولاً، بقيت يوما عند أحد معارفي من الموريسكيين، لم أخبره بقصتي، ومع الفجر غادرت في رحلة طويلة إلى فالنسيا، هناك أوصلت الرسالة إلى صديق الونزو وكان صانع قوارب من كاتلونيا استقر به المقام في فالنسيا، بقيت عنده إلى أنْ اشتريت داراً وبستان توت بما حملته معي من مال...

-حاولت أنْ أمثّل دور المواطن الكاثوليكي الصالح كما يقولون وتعرفت إلى فتاة شقراء من بقايا المجوس الفايكنغ، لكني لم أستطع معاشرتها كما تريد، وطاردتني أينما ذهبت، حاولت التخلص منها بشتى الطرق، لكنها غير قادرة على الابتعاد عني كما قالت، كان زوجها ضابطا أو بحارا وقد ذهب في رحلة بعيدة، وأنا لا أستطيع الارتباط بها،

نفسي- أبت ذلك، أنا مسلم يا أخي ولا أستطيع أنْ أعاشر امرأة متزوجة، ولم يكن مسموحا لها بالطلاق، لذا أخفيت وجهي عنها مستعينا بالكاتلوني الذي حاول إبعادها عني، فذكر لها أني موريسكي كي تتركني، المسكين أراد أنْ ينفعني فألحق بي الضرر، هددتني بفضح أصلي الموريسكي إنْ لم أذهب معها إلى البيت، حاولت إرغام نفسي- على ذلك، ما أفعل؟ لكني لم أطق رائحتها المقرفة، وتركتها، كنت أتوقع أن تشي- بي، وقد لاحظت اشمئزازي منها، جمعت ما أملك من مال وهو ليس قليلا، حصلت عليه من تجارة الحرير، كنت أنتج في منسجتي أجود أنواع الحرير في فالنسيا وكان التجار يشترونه مني بأيّ ثمن، حتى ذاعت شهرته وسمي بحرير مارتينو وهو الاسم الذي حملته في فالنسيا، الكل يعرف أني قشتالي عدا الكاتلوني صانع القوارب الذي أخبر ساندرا، كنت متواريا في الميناء بذريعة المشاغل عندما أخبرني الكاتلوني بأنَّ رجال محكمة التفتيش يبحثون عني، وهكذا هربت إلى مكان ما ثم إلى غرناطة، لأتنكر باسم ماركوس، وأعود مجددا تاجرا بارعا للحرير، هذا ملخص قصتي، أغلب أفراد عائلتي قتلوهم، بالحرق أو التعذيب، وما أرجوه منك يا أخي أنْ تساعدني بإنقاذ زوجتي قمرين وأولادي، حامد وعمار وكناري، وبكى، لم أرهم منذ سنوات، وأجهش يبكي، أبكاني معه ماركوس ووعدته بالذهاب إلى إشبيلية وأخذت منه رسالة تعريف إلى زوجته قمرين.

مع استغراقنا بقراءة المدريديين الأربعة ومشاركة الهولنديين، وزعت خيمة قرطاجنة حكاية جديدة تملأ فراغاً آخر في متوالية حكايات قمرين كما بدأ المشاركون في المخيم يسمون كل الحكايات لأنها بشكل وبآخر تدور في فلك حكاية قمرين . يقولون في خيمة قرطاجنة أنهم استقوا حكايتهم (علي الخير) مما كتبه شرطي قشتالي خدم في قرطاجنة وحفظت يومياته في مكتبة المدينة، بالإضافة إلى مصادر أخرى من الإسكوريال ومكتبة تطوان وغيرها.

الكـوندي دي لـيريـا

الكونـــدي دي ليريـــا الفـــارس العظـــيم لكنيســـتنا الكاثوليكيـــة المقدســـة، كـــان معاونـــا للمقـــدس الكاردينـــال ثيســـنيروس، وكـــل رجـــال كنيســـتنا عظـــام ومقدســـون، لكـــن الكونـــدي دي ليريـــا كـــان ملتزمـــا بـــآداب الفروســـية القشـــتالية المقدســـة، وفروســـيتنا يـــا ســـادة مقدســـة أيضـــا، كـــل مـــا عنـــدنا مقـــدس طبعـــا، وكـــان دي ليريـــا شـــجاعا جـــدا، جـــدا، جـــدا، حتـــى إنّـــه عنـــدما كـــان يقـــود خمســـين مـــن خـــيرة فرســـاننا المقدســـين، نعـــم ســـادتي فرســـاننا مقدســـون، وقائـــدهم الشـــجاع جـــدا جـــدا مقـــدس أكثـــر مـــنهم، ولأنـــه كـــذلك، وحفاظـــا مـــن حضرـــته المقدســـة عـــلى قداســـة نفســـه، لم يعـــرض نفســـه لخطـــر الاشـــتباك مـــع المرتـــدين عـــن ديننـــا المقـــدس مـــن المورســـكيين، الـــذين خـــانوا قشـــتالة المقدســـة، وتـــآمروا عليهـــا مـــع المغاربـــة الكفـــرة، اعـــذروني ســـادتي مـــن كثـــرة تكـــراري لكلـــمات القداســـة، هكـــذا ينبغـــي تبجيـــل ديننـــا ورجالنـــا أمـــام أولئـــك الهراطقـــة والمشـــعوذين، أقـــول ســـادتي إن الكونـــدي دي ليريـــا، لأنـــه مقـــدس، أدار جواده وعاد خببا إلى غرناطة، بل إنّه لاهتمامه بقداسته لم

يلتفـــت خلفـــه أبـــدا، وتـــرك رجالـــه يقـــاتلون المرتـــدين، وبهـــذا فقـــد قـــدم لتاريخنـــا المقـــدس خدمـــة كـــبرى لبقائـــه حيـــا، بيـــنما قتـــل الهراطقـــة أكثـــر رجالنـــا وأسروا عـــددا آخـــر مـــنهم ولم يـــنجُ إلا القليـــل، وإن فاتـــه كـــما رأى الكاردينـــال ثيسنيروس المقدس، فاته أن يتبرك بذبح الموريسكيين مثل النعاج..

ولأنَّ الكونـــدي دي ليريـــا، لا أحـــد أكثـــر منـــه إخلاصـــا للكاردينـــال ثيســـنيروس، فقـــد تلقـــف الوصـــية جيـــدا وانطبـــع كـــلام الكاردينـــال بعقلـــه وحفظـــه كـــما يحفـــظ أوقـــات طعامـــه، ولهـــذا أسرع حـــين علـــم بـــان العشـــرات مـــن الموريســـكيين ممـــن لا يســـتطيعون القتـــال قـــد لجـــأوا بعـــد هـــدم دورهـــم إلى مســـجد قريـــب، أسرع المقـــدس دي ليريـــا، وهـــو يحفـــظ كلـــمات المقـــدس ثيســـنيروس ومعـــه عـــدد أكثـــر مـــن الســـابق مـــن الفرســـان، المقدســـين أيضـــا، وإن كـــانوا مقدســـين بدرجـــة أقـــلّ مـــن دي ليريـــا، كـــما أنَّ الكونـــدي دي ليريـــا أقـــل قداســـة مـــن الكاردينـــال ثيســـنيروس، مـــاذا أقـــول ســـادتي، كـــان دي ليريـــا في مقدمـــة فرســـانه، وهكـــذا هـــم الشـــجعان، هكـــذا هـــي الفروســـية القشـــتالية، كـــان في المقدمـــة، هـــذه المـــرة لم يتـــأخر، وإنّـــما كـــان يسرـــع أكثـــر مـــن الآخـــرين، ومـــا إنْ وصـــل، حتـــى أمـــر رجالـــه باقتحـــام مســـجد الكفـــرة، وحـــين عـــادوا إليـــه، عـــاد رجالـــه وقـــالوا لـــه إنَّ مـــن في المســـجد ليســـوا مســـلحين ويتبـــاكون، فـــماذا نفعـــل بهـــم؟ نهـــر مـــن ســـأله وهجـــم وهـــو شـــاهر ســـيفه وخلفـــه جنـــوده الشـــجعان جـــدا وذبحـــوا الجميـــع، كـــل كبـــار الســـن ذبحـــوهم، كـــل الرجـــال حتـــى الصـــبيان، وانفـــردوا بالنســـاء ســـاعات، ارتـــاحوا لســـاعات، ومعهـــم المقـــدس دي ليريـــا طبعـــا، كـــن نســـاء المرتـــدين، هـــن مرتـــدات أيضـــا، ثـــم بـــاعوهم كلهـــم، الأطفـــال والنســـاء، كلهـــم، لكـــن كـــل واحـــد إلى جهـــة، كانت أثمانهم رخيصة، وهدموا المسجد على جثث القتلى..

عنـــدها اســـتعاد دي ليريـــا المقـــدس حظوتـــه عنـــد المقـــدس أكثـــر منـــه، الكاردينـــال ثيســـنيروس، وعـــادت الأمـــور كـــما كانـــت صـــحيحة تمامـــا، هكـــذا فروسيتنا المقدسة وفرساننا المقدسون.

أثـــارت قصـــة الفروســـية هـــذه بطرافتهـــا وانتقاداتهـــا الخفيـــة ردود أفعـــال متباينـــة، فقـــد عـــدها بعـــض الأدبـــاء إســـاءة للتـــاريخ القشـــتالي المجيـــد، وكـــاد هـــؤلاء أنْ يرســـلوا بحامـــد إلى الســـجن، بـــل طالـــب أحـــدهم بتقديمـــه لمحكمـــة التفتـــيش، ملمحـــا إلى أنَّ الموريســـكيين لا يمكـــن أنْ يكونـــوا مخلصـــين لقشـــتالة، لكـــن عـــددا مهـــما مـــن الأدبـــاء ومحبـــي قصـــص الفروســـية عارضـــوهم ووجـــدوا فيهـــا تجديـــدا في الأســـلوب القصصي ـ الســـائد، وكـــان لهـــؤلاء الغلبـــة في النهايـــة، إذ أقنعـــوا الحـــاضرين بجـــمال القصـــة وأكـــدوا عـــلى احترامهـــا لكـــل مـــا هـــو مقـــدس بتكرارهـــا الرائـــع لكلـــمات القداســـة، أحـــد الأدبـــاء الإســـبان مـــع أنـــه كـــان كثـــير الإعجـــاب بالأســـلوب القصصي ـ الجديـــد الـــذي ابتدعـــه حامـــد، لكنـــه لم يـــرتح لمضـــامين قصصـــه التـــي تزخـــر بـــالتهكم عـــلى فرســـان الكنيســـة المقدســـة وأبطـــال المســـيحية وكـــان هـــذا الأديـــب المفلـــس عـــادة يحمـــل لقبـــا مـــاثلا للقـــب عائلـــة حامـــد (رودريغـــو) وتعـــرض للإصـــابة عـــلى يـــد المغاربـــة وأسر عنـــدهم لعـــدة ســـنوات، هـــذه الأســـباب جعلتـــه يكـــره حامـــدا وفي نفـــس الوقـــت كـــان متـــأثرا بأســـلوبه القصصي ـ، وقـــد لاحـــظ المهتمـــون بـــالأدب تـــأثره بأســـلوب حامـــد في كتابـــة القصـــص وتقليـــده لـــه، وأصـــبح تـــأثره محـــل انتقـــاد الأدبـــاء وتهكمهـــم ممـــا أوغـــر صـــدره عـــلى حامـــد وازداد بغضـــا لـــه، لقـــد غـــدا ظـــل حامـــد يلاحقـــه ويزعجـــه، فحتـــى لـــو بـــذل كـــل

طاقته في كتابة قصة جديدة، فإن حكم زملائه مقدمٌ، إنها تقليد لقصص حامد أو مسروقة منه، وصار يشعر بعقدة الاضطهاد (البارانويا) من كل ما يذكّره بحامد، وبات يتحين الفرص للانتقام منه خاصة بعد أنْ علم أنَّ حامداً أو خوان موريسكوس متنصر، وأنّه يحمل لقبا مماثلا للقبه فاستشاط غضبا وأصرّ على تطبيق القانون القشتالي بحق هذا الموريسكي المنتحل لأسماء سادته القشتاليين، وكان القانون القشتالي يحرم على النصارى الجدد (الموريسكيين (انتحال اسم لنصراني قديم، وإذا حررت وثيقة بأسماء متشابهة بين نصراني قديم ونصراني جديد وأخفى النصراني الجديد ذلك ولم يخبر محرر الوثائق ، فعلى السلطة أنْ تغرم النصراني الجديد مبلغا كبيرا يدفع للنصراني القديم، ويتم إصلاح الخطأ..

وهكذا قام بجرجرة حامد للمحاكم، ممنيا نفسه بغرامة تغسل فقره، وأصر (رودريغو) على ذلك رغم تدخل صديقهما المشترك الأديب جون بيرز..

))جون بيرز هو أديب من أصل موريسكي، طرد فيما بعد عام 1609 إلى تونس وهناك عرف باسم إبراهيم الطبيلي، نسبة إلى نهر طبيلة أحد فروع نهر شقورة في مدينة مرثية، وتقول بعض المصادر التي اطلعنا عليها في مكتبة خاصة تعود لأحد أساتذة جامعة القيروان: إنّ إبراهيم الطبيلي أو جون بيرز هو نفسه الإشبيلي لويس بن سالم وقد هرب مع

صديقه حامد إلى بلد الوليد وهناك تنكر لويس باسم جون بيرز، بينما بقي حامد محتفظا باسمه، ولم يذكر المصدر وهو رسالة أو ما يشبه مجلة قديمة بلا غلاف، سبب اختياره لاسمه الأخير إبراهيم ولماذا لم يعد إلى اسمه السابق لويس بن سالم بعد إخراجه من الأندلس عام ((1609 إضافة لموريسكي من تونس.

لكن القاضي حكم لصالح حامد، لأنَّ الاسم كما ذكر في قرار الحكم يتعلق بملاح إشبيلية وقشتالة العظيم خوان رودريغو، والمثبت في السجلات الملكية مما لا يمكن محوه أو الاعتراض عليه، وهو على كل حال - كما قرر القاضي – أنّ الاسم مسجل قبل أنْ يولد المشتكي..

((تقول خيمة العدوة المغربية، في إضافة قيمة:

نقلا عن إبراهيم الطبيلي، أو جون بيرز أو لويس بن سالم: إن حامداً لصداقته الوثيقة به أطلعه، على ما يكتبه من قصص، قبل أن يرسلها إلى شقيقه عمار المسمى بالقشتالية أمّارو، وهو يعمل بالتجارة بين بلد الوليد وقلعة هنارس..

((كتب ضيف إسباني هذا الهامش:

هنارس هي المدينة التي يقول سرفانتس - مؤلف دون كيخوته - أنه ولد فيها ويفاخر دائما بمكتبتها التي أنشأها الكاردينال زمينز المشهور بإبادته للموريسكيين عبر محاكم التفتيش وغيرها.))

وكان حامد قلقا دائما من ضياع قصصه، ويضايقه كثيرا أنّه لم يكن يستطيع نشر أكثرها لكي لا تسبب له مشاكل كما حدث مع قصته (الكوندي دي ليريا) لذلك كان يرسل نسخة من كل قصة ينجزها إلى أخيه ويوصيه بنشرها إذا سمحت الظروف بذلك، وقد أنجز في أيامه الأخيرة قصة جميلة مضحكة من قصص الفروسية، وهي أطول قصصه، تتجاوز المائة صفحة، وكنت لا أملّ من الضحك عند قراءتها – يقول الطبيلي – لكني نصحته بعدم نشرها، لأنها وإن كانت في الظاهر تنتقد الفروسية وفرسانها بسخرية واستهزاء، إلا أنّها بشكل خفي لا يغيب عن القارئ الذكي تنتقد ما تدعيه حكومة قشتالة من بطولات الفروسية وملاحمها ضد الموريسكيين العزل من القوة والسلاح، ووصف حامد في قصته من يسير وراء حكومة كهذه بالتابع الغبي أو الحمار، ورسم مشاهد سردية غاية في التندر وإثارة السخرية من قشتالة وفرسانها..

لم يعرف إلى الآن مصير قصة الفروسية تلك، لكن مصير حامد مؤلفها، معروف للإشبيليين وسكان بلد الوليد، إذ اقتاده رجال محكمة التفتيش ظهر يوم جمعة، فقد فاجأوه يغتسل ويفرش سجادته للصلاة، خرجوا به من داره، وخلفهم كان أديب إسباني يتمشى بانتشاء، ويثير الاستغراب لوجوده معهم..))

أرجو أنْ لا تكون قد تعبت، على خلاف عادتي، سأضطر اليوم للاستمرار معك، قد يلفت انتباهك صديقي، أنَّ خيمة بلد الوليد، هي

التي أعدّت حكاية حامد وقصصه عن الفروسية وليس إشبيلية، هذا لأنّ بلد الوليد هي مسرح الأحداث بعد هروب حامد ولويس بن سالم، ولأن خيمة بلد الوليد جمعت مصادر الخبر ذي القيمة التاريخية بجهد خاص بها من صاحب مكتبة شخصية في مدينتهم ومن مكتبة قلعة هنارس واستطاعوا اختراق نظام التشفير الإلكتروني في أكاديمية التاريخ في مدريد للوصول إلى مصادر لا يسمح بالاطلاع عليها، ولكن، كل سر معرض للاستباحة في عالم اليوم، كما أنّ إضافة خيمة العدوة المغربية كانت لافتة للنظر أيضا لأهميتها الخاصة..

طبعا ما نشرته بلد الوليد سيثير إشكالات وليس إشكالا واحدا، فمن لديه - من الأمم أو الأفراد - الاستعداد للتنازل عما سجل تأريخيا باسمه من الآثار الأدبية العظيمة، إلا أننا، لا نتوقف طويلا هنا، للقارئ أن يعيد قراءاته ثم يقرر، ونعود إلى خيمة العدوة المغربية وما لملمته من أخبار عن بيدرو أو ماركوس أو مارتينو على اختلاف أسمائه القشتالية ونعني بدر بن حامد وزوج قمرين الذي أبحر إلى العدوة المغربية، مستندة في ذلك إلى مراجع عديدة، منها رحلة الشهاب أفوقاي الموريسكي إلى هولندا وغيرها، عرضت الخيمة وفرة من الأخبار والتفاصيل الدقيقة، إلا أننا كإدارة للمخيم، أصررنا على ضرورة التركيز والاختصار، فقد أوشكت إجازة المخيم على الأرض الإسبانية بالانتهاء وعلينا لم حكاياتنا بأسرع ما يتاح لنا، من جهتي السرد والواقع

المعـــيش معـــا، والعـــودة إلى عوائلنـــا، في إســـبانيا وخارجهـــا، فقـــد غبنـــا عـــنهم طويلا، وهكذا كان ..

العدوة المغربية

بعد عام تقريبا من بلوغهم العدوة مع بدر بن حامد وعائلته، رتب حامد لنيكولا وابنتيها السفر بحرا إلى البرتغال كما اتفق مع الهولندي باستن، لكن نيكولا التي التقت ب بيترباستن إثر وصوله لشبونة أيضا ومعه قمرين وابنها عمار، اعتذرت عن السفر معهم إلى لاهاي وفقا لخطتهم التي اتفقوا عليها عند الهرب من غرناطة، فقد تعرفت على بحار برتغالي وستتزوجه قريبا ليرحلوا بعدها إلى البرازيل، وكانت سعيدة بما تقوله وهي تحتضن ابنتيها بحنان..

احتفت حكومة هولندا بمواطنها بيتر باستن لدوره في المخاطرة بحياته وإنقاذ أرواح العديد من المسيحيين في إسبانيا من اضطهاد محاكم التفتيش التي عانى منها أيضا شعب هولندا خلال الاحتلال الإسباني وذاق المرارة تلو المرارة كما يقول نص قرار التكريم، لكنه لم يبق في لاهاي طويلا فقد استغلت حكومته اهتماماته العربية ووجود قمرين وابنها معه، لتبعثه إلى العمل في مكاتب شركة الهند الشرقية الهولندية خارج هولندا..

بعد ثلاثة أعوام من العمل في إندونيسيا، وكان عمار قد أصبح المساعد الأهم لبيتر، انتقلوا إلى الخليج العربي أو خليج البصرة كما تسميه الخرائط الهولندية، وأثناء إبحارهم في الخليج تعرضوا لهجوم من سفن صغيرة سريعة الحركة، تسميهم المصادر الهولندية بالقراصنة العرب،

ويظن أنّهم من القواسم لقرب الهجوم من سواحلهم وقيل إنّهم من الخواري عرب جزيرة خرج، وقد قتل بيتر باستن خلال المعارك، فيما استطاعت سفينة حربية هولندية إنقاذ عمار وأمه قمرين ونقلهما إلى البصرة، ونقلا عن أرشيف الشركة فإنَّ عمار، أو أمارو، سكن منطقة العشار في البصرة مع أمّه وتزوج من فتاة بصراوية، وقد تنقل في عمله بين مكان قريب من ميناء المعقل حاليا، أعلى شط العرب، وبين الفاو أقصى الجنوب العراقي، حيث أنشأت الشركة الهولندية هناك فنارا لرصد السفن أو إرشادها، وانتهت أخباره هناك إذ طاب له أهل البصرة وأحبّ عشرتهم فبقي فيها وصار كأحدهم بعد انتهاء أعمال شركة الهند الشرقية الهولندية في البصرة.

***

عادت خيمة غرناطة إلى الظهور القوي بحكاية فاجعة، وهي بتعبير أدق، إخبار عن المرسى الأخير لحياة مبدع دمية المايوركا، كريم كاسياس، أو زكي الحطاب الغرناطي الشجاع..

صيـد الرؤوس 1

حفـل زواج كـريم وكنـاري أواخـر عـام 1567، كـان بسـيطا، ولـو شـهدته قمـرين لتقطعـت ألمـا، كانـت تحلـم بزفـاف بهـيج لابنتهـا في إشـبيلية، ولكـن لا مقارنـة عنـد قمـرين بنـت الأشراف وصـاحبة القـرآن، لا مقارنـة عنـدها بـين الفونسـو اللعـين ونظراتـه الوقحـة لابنتهـا وبـين كـريم الحطـاب الفقـير والمطـارد، لا لشيء، سـوى أنّـه مسـلم أندلسي حـر، لا يقبـل الذلـة ولا الهـوان، لـذا أوصـت حامـداً أنْ يخـرج بأختـه إلى جبـل البشـرات ويزوجهـا مـن كـريم، وربـما كانـت هـذه - وفقـا لـبعض المصـادر- وصـية بـدر والـد كناري نفسه..

مـع زواجهـما وبعـده بأشـهر، انـدلعت أقـوى وأوسـع وآخـر ثـورات الأندلسـيين، وكـان كـريم في المقدمـة كعادتـه، وكـان أسـتاذه وقائـده، عـلي الخـير الأندلسي، قـدوة لهـم - عـلى كـبر سـنه - في الأخـلاق والشـجاعة والقتال..

قـاد المعـارك الضـارية ضـد الثـوار الأندلسـيين الـدون خـوان النمسـاوي بنفسـه، الأخ غـير الشرـعي لملـك قشـتالة فيليـب الثـاني، وأسرف في القتـل والتنكيـل بالموريسـكيين، قتـل الأسرى مـن الثـوار بـلا تـردد، اغتصـبت النسـاء وبيعـت كجـوارٍ، وتـم التفريـق بـين الأمهـات وأطفـالهن، الـذين تـم بـيعهم أيضـاً، وأمـر بقتـل الآلاف مـن الصـبيان الصـغار، وفي أجـواء كهـذه عاشـت كنـاري، متنقلـة مـع زوجهـا مـن مكـان إلى آخـر، ومـن معركـة لثانيـة،

وهكـــذا عاشـــا أربعـــة أعـــوام أنجبـــت خلالهـــما ولـــدين أســـميا الأول حامـــداً، تيمُّنـــاً بخالـــه حامـــد بـــن قمـــرين، والثـــاني، عـــمار، باســـم خالـــه الآخـــر، وكـــان العـــام الرابـــع أصـــعبها فقـــد أخمـــدت الثـــورة الأندلســـية الكـــبرى عـــام 1571، ومـــا تـــلاه كـــان عمليـــات مطـــاردة وحمـــلات واســـعة شـــارك فيهـــا أغلـــب القشـــتاليين جنـــودا وغـــير جنـــود لاصـــطياد الموريســـكيين، إذ إنّ الـــدون خـــوان النمســـاوي، ويســـميه المواركـــة، بالنغـــل، كونـــه ناتجـــاً عـــن زنـــا الجرمـــاني كـــارلوس الخـــامس ملـــك قشـــتالة بأمـــه، قـــام بعـــد خـــداع الثـــوار وإعطـــائهم وعـــود الأمـــان التـــي لم يـــفِ بهـــا، قـــام بإصـــدار تخويـــل عـــام لكـــل القشـــتاليين، فمـــن يصـــطاد امـــرأة مـــن نســـاء الموريســـكيين المتمـــردين فهـــي ملكـــه، حتـــى الصـــغيرات مـــنهن، وكـــذاك الأطفـــال، أمّـــا الرجـــال، فكـــل مـــن يـــأتي بـــرأس موريسكي فله 20 دوقة ذهبية..

وهكـــذا اشـــتهر عنـــد القشـــتاليين مـــا ســـمي بصـــيد الـــرؤوس، فكـــانوا يخرجـــون لحفـــلات الصـــيد جماعـــات، كـــما تخـــرج فـــرق صـــيد الطيـــور أو الغـــزلان ومـــا شاكل ويتفاخرون كل منهم بعدد الرؤوس التي اصطادها..

تـــدخلت خيمـــة البشـــرات بـــإيراد قصاصـــات سرد، أو جمـــل قصصـــية معـــبرة، لكنها ذات علاقة بحكاية صيد الرؤوس..

مبيـد المـواركـة

الدون خوان أوستريا

(مبيد المواركة)

كان أميرا من قشتالة

لكن أمه لم تتزوج قط

وعلى صدرها – كما يقال – تمخط كارلوس الملك.

الأندلسية مريم

مع صرخات فتاها الذي يمزق الآن

كانت الأندلسية – مريم – تتلوى

ومن على سريرها الذي اعتلاه قشتالي

ارتشقت عينها..

على النافذة.

يعد نقوده

عشرون، أربعون دوقة ذهب، ستون

كان القشتالي يعد الرؤوس المدماة،

لكل رأس عشرون،

كأنما يعد نقوده.

كانوا يتضاحكون

ببرود..

لم يأخذوا معهم سوى رأسه

ومن خلف الأكمة،

كم تمنت لو تلحق بهم، لتقبله!

وكانوا على أفراسهم..

يتضاحكون..

***

أعطت خيمة غرناطة وقتا كافيا للبشرات، شقيقتها وجارتها، وكأن الأمر متفق عليه بينهما، ثم عاودت سرد حكايتها، صيد الرؤوس..

صيـد الرؤوس 2

آن لرأســـه الأندلسي ـــ أنْ يترجـــل عـــن جســـده، كـــريم كاســـياس، مبـــدع المايوركـــا الجميلـــة، كـــما يســـميه الأندلســـيون في إشـــبيلية وفـــارس البشرـــات، أو، ذباح القشتاليين، كما يسميه الشماليون..

في تلـــك الســـاعة مـــن الضـــحى، تحاوشـــوه، كـــان جريحـــا، وكـــان خـــائر القـــوى ويقاتـــل، عـــلى مبعـــدة منـــه، خلـــف الصـــخور اختبـــأت كنـــاري وأخفـــت طفليهـــا، الرضـــيع في حضـــنها، كتمـــت فمـــه، والآخـــر، حامـــد، اصـــطكت أســـنانه، وانـــدس تحتهـــا، رأتـــه، كـــما تعرفـــه، بضرـــاوة يقاتـــل، ثيابـــه قطعـــة دم ويقاتـــل، وكـــانوا كثـــيرين، أكثـــر مـــن عشرـــة، ورأتهـــم يقطعـــون رأســـه بوحشـــية، ربـــما أغمـــي عليهـــا للحظـــات، علـــق أحـــدهم الـــرأس بسرـــج جواده، ومضوا، كأنهم اصطادوا أرنبا أو حمامة، وكانوا مبتهجين..

تركـــوا لهـــا جســـده ولم يروهـــا، خـــاف الصـــغير حامـــد ولم يعـــانق أبـــاه، أو جســـد أبيه مثلما عانقته أمّه، ثم بعد ساعات جاء إخوة له، أندلسيون، ودفنوه..

بقيـــت كنـــاري في رعايـــة عـــلي الخـــير، كـــان يـــرى فيهـــا ابنتـــه فاطمـــة والتـــي علـــم أنهـــا توفيـــت بعـــد عبورهـــا إلى العـــدوة المغربيـــة مـــع زوجهـــا بيـــدرو، والـــد كنـــاري، ووضـــع كـــل همـــه – بعـــد إخمـــاد الثـــورة واستشـــهاد تلميـــذه ورفيـــق دربـــه كـــريم كاســـياس - في النجـــاة بهـــا وبولـــديها حامـــد وعـــمار، وقـــرر المجازفـــة والنـــزول مـــن الجبـــال للابتعـــاد عـــن غرناطـــة وعـــن الأنـــدلس

الصغرى كلها، لكنهم فوجئوا بغارة للقشتاليين لم يتوقعوها، كانت كمينا، سارعوا بالصعود إلى الأعالي، موريسكيون وعوائلهم، لا مجال للاستسلام، يعرفون النتائج، الصخور وعرة، والقتلة وراءهم، أخيرا لجأوا إلى مغارة ضيقة المدخل، واستعدوا للقتال، أدركهم المطاردون، لكنهم عدلوا عن اقتحام المغارة بعد مقتل العديد منهم، ثلاثة جنود أو أربعة قتلوا، حامد لا يتذكر الحادثة إلا غائمة، علي الخير، قص عليه تلك الحوادث وتفاصيلها فيما بعد..

جمع القشتاليون الأغصان، كوموها أمام باب المغارة، كأنهم اعتادوا فعل ذاك، ثم أشعلوا النار، وكان بعض الأغصان رطبا، وامتلأت المغارة بالدخان، علا الصراخ في الداخل والسعال، أما في الخارج فقد ابتهجوا، وعلت صيحات ابتهاجهم، وكانت سيوفهم مشرعة بانتظار من يهرب من النار أو الاختناق، اندفع فتى في الخامسة عشرة، اخترق النار فعلقت به، نحيفا كان وسريعا حين اندفع، فارتبكوا، أخافهم لاندفاعه مشتعلا، ثم تناوشوه، بسيوفهم وتركوه مدمى ويحترق..

سمعوا بعض الاستغاثات من الداخل بالقشتالية، فتبادلوا النكات والضحكات، وبعدها اندفعت أم ورضيعها، وجهها أسود من الدخان، ركضت وهي تصرخ، ومع أنّها اجتازت النار بسلام، لكنهم مزقوها بخفة هذه المرة وبسرعة، رموا للنار أغصانا أكثر، وكان الظلام وشيكا،

فانسحبوا وهم حذرون خوف أن يهاجموا وكانوا يتلفتون، وخلفهم النيران تتراقص ألسنتها أعالي البشرات، كأنها تطاردهم..

من المحرقة نجا القليل من المحاصرين، وقف علي الخير وبيده حامد عند كناري، على صدرها لم يزل نصف أمارو، رضيعها، وقريبا منها نصفه الآخر، ذراعه الصغيرة الناعمة وبعض صدره، وكانا مصطبغين بالدماء والرماد.

جنوب البرتغال، قريبا من البحر، عاش علي الخير ومعه الصغير حامد، بقيا بانتظار بيدرو وحفيده محمد، عاش علي الخير سنوات، ثم ترك حامداً شابا ومات، تركه وفي صدره عبأ كل ما يعرف، علمه القرآن سرا والعربية والخميادوا البرتغالية والقشتالية أيضا، سقى قلبه الصغير رشفة رشفة، الخير والسلام والمحبة للناس ومضى عنه، كأنه معي إلى الآن، قالها حامد لخاله عمار بن قمرين، حين التقاه في البصرة..

))مداخلة بلا اسم: لم يأت بدر للبرتغال ولا محمد حفيد علي الخير، ولم يسمع عنهما أحد، فقد قيل إنّهما غرقا في البحر، وقيل أيضا قراصنة إسبان أسروهما، قتلوهما أو رموهما في البحر((..

عاد المدريديون الأربعة إلى الأضواء بمساهمة جديدة، أكثر من رحب بها أعضاء خيمة إشبيلية، لأنّ الرسامين تناولوا بمساهمتهم قراءة للإشارات المتبادلة بين أربعة نصب في إشبيلية..

-1 تمثال حامد الملاح أو خوان رودريغو

-2 تمثال فرديناند زوج إيزابيلا

-3 تمثال الخيرالدا أعلى كاتدرائية إشبيلية

-4 قبر كرستوف كولمبس

عنون المدريديون قراءتهم بـ "كارمن"، قد يتضمن هذا الاختيار تكريما لزميلتهم الرسامة كارمن، لكنه كان احتفاء بذكرى كارمن بنت كولمبس وزوجة الملاح حامد رودريغو، لم يذكروا صراحة سبب التسمية، اكتفوا بعرض لوحتهم، الأخيرة، الرائعة، وكانت ختام المخيم، مخيم المواركة..

كـارمـن

كـارمن لـيس اسـما، كـما أنّـه أوسـع أفقـا مـن كونـه عنوانـا، كـارمن تجسـيد أو اختـزال لأربعـة نصـب تحتفـل إشـبيلية بسـتان ملـوك الأنـدلس وعـروس إسـبانيا باحتضـانها، وإذا كـان المخفـي أو المسـكوت عنـه أكثـر إغـراءً في العـادة مـن المعلـن واللامحظـور، فـإنّ كـارمن الإيطاليـة غـدت محطـا لإشـارات الأربعـة، وملتقـى لمـا يبـث مـن تـرددا تهم، كـارمن الراقـدة تحـت قـدمي زوجهـا وحبيبهـا خـوان رودريغـو، آو، حامـد المـلاح الأندلسي، والتـي لم ينشِـئ الإسـبان لهـا نصـبا أو رسـما، نراهـا الآن تتطلـع إلينـا وتمـلأ مـدى الإشـارات كلـه بابتسـاماتها وهـي تـرى كرسـتوف كـولمبس والـدها يكتـب بريشـته اسـم خـوان، زوجهـا، كـأول مـن رأى تلـك الأرض، الأرض التـي أغرقـت إسـبانيا وأغرقـت البرتغـال جارتهـا بالـذهب، وأغرقتها الإيبيريتان، إسبانيا والبرتغال، بالدم، الدم والفظائع..

((يقـول كـارلوس الناقـد الأرجنتينـي نقـلاً عـن روايـة إنـيس لإيـزابيلا ألينـدي: إنّ الإسـبان إذا أرادوا تحريـك مفـرزة مـن فرسـانهم في بـراري أمريكـا الجنوبيـة، يقـوم كـل فـارس باختيـار فتـاة مرضـعة أو أكثـر مـن الهنـديات بعـد أن يجـبروهن عـلى تـرك أطفـالهن لمصـيرهم، قـد يقـذف الفـارس بالرضـيع جانبـا فيتهشـم أمـام آمـه، أو تسرـع بتركـه أو إعطائـه لأقـرب هنديـة، تـربط المرضـع الهنديـة بحبـل ويجرهـا الفـارس خلـف جـواده ماشـية، يفعلـون كـل هـذه البشـاعة والوحشـية والقسـوة، فقـط للاحتيـاط،

لكـــي يرضـــعوا أثـــداءَهن إذا تعرضـــوا للجـــوع أو العطـــش في وســـط الصحراء.))

((حـــول تعليـــق الأرجنتينـــي ذكـــرت كـــارمن لوحـــة كلاســـيكية يظهـــر فيهـــا عجـــوز ســـجين جـــاث عـــلى ركبتيـــه أمـــام ابنتـــه التـــي كانـــت تجلـــس عـــلى مصـــطبة وتنحني على أبيها وهو يرضع ثديها، كانت تطعمه..

وعلـــق مثقـــف مـــن شـــيلي: ثمـــة فـــرق كبـــير بـــين ابنـــة تـــزور أباهـــا الســـجين لتنقـــذه مـــن المـــوت جوعـــا أو عطشـــا وبـــين أســـيرة ينتـــزع منهـــا رضـــيعها بـــالقوة وتســـاق ماشـــية عـــبر الصـــحراء لـــتطعم فارســـا قاســـيا لا تعرفـــه، وقـــد لا يحتـــاج إليهـــا وتموت هي من الجوع أو الإرهاق، أو من الحنين إلى رضيعها ....))

كـــارمن، إذن، تعنـــي شـــعوبا امّحـــت ألـــوانهم، شـــطبت برصـــاص الإســـبان ووحشـــيتهم، المايـــا، الأزتيـــك، ســـلالات الهنـــود الحمـــر العريقـــة، وتعنـــي وهـــي تتنقـــل بإشـــاراتها بـــين تمثـــال فرديناللـــد وبـــين تمثـــال خـــوان الموريســـكي، زوجهـــا، تعني الأندلس..

كـــارمن عنـــد قـــدمي حامـــد بـــن الحـــاج هـــلال ترقـــد، ووجههـــا تجـــاه الشـــرق، إلى الجنوب قليلا، هل ستبقى كارمن هكذا، تصلي تجاه الكعبة إلى الأبد؟

قراءاتنا الأربع هي كارمن وإن توزعتها الأنصاب الأربعة..

(1)

ولـــدت الكاتدرائيـــة الأكـــبر في العـــالم الكـــاثوليكي، كاتدرائيـــة إشـــبيلية، أو كاتدرائيـــة ســـيفيا، ولـــدت مـــن رحـــم مســـجد، عنـــاق وأمومـــة، هكـــذا نقرؤهـــا نحـــن في خيمـــة مدريـــد، ولنـــا أن نهمـــس بهـــا في أذن المدينـــة العاصـــمة، مدريـــد.. ثمـــة مســـجد في اســـطنبول، المســـجد الأعظـــم، أنجبتـــه كنيســـة أيضـــا، كنيسة أيا صوفيا، بعضنا أنجب بعضا، وكلنا للسماء..

(2)

الخيرالـــدا أيضـــا، فـــارس الريـــاح، رفعتـــه المئذنـــة، وبـــدأت حكايـــة التمثـــال المشـــير إلى جهـــة الـــريح في ليـــالي بغـــداد، ألـــف ليلـــة وليلـــة، ولـــه، عـــن طيـــب خـــاطر، هـــزت إشـــبيلية تفاحاتهـــا الأربـــع فتســـاقطن، هزهـــا الزلـــزال فتســـاقطن ليتربـــع الخيرالـــدا عاليـــا، وإلى محلـــه ربـــما، يتمنـــى فرديناللـــد، لـــو يطـــير، يتمنـــى، لكنهـــا الرايـــة المثقلـــة بـــدمهم، دمـــاء الغرنـــاطيين الـــذين ذبحـــوا تحـــت رايتـــه، تثقله، وسيظل هكذا، مثقلا بدماء ضحاياه ويتمنى..

وهنـــاك في الشـــرق أيضـــا، في روســـيا، ســـيتلقف بوشـــكين مـــا قـــرأه في الليـــالي البغداديـــة أو نقلـــه عـــن واشـــنطن إيرفنـــغ ويكتـــب عـــن ديـــك الريـــاح، أنجـــب الخيرالـــدا ديكـــا صـــائحا، لا شـــك أنـــه كـــان وريثـــا للمـــؤذن فجـــرا، لـــذا بـــاض الخيرالدا فولد ديكا، حبة حبة سيلتقط الديك الذهبي رمانته..

وعلى مبعدة كان فرديناالد يردد: سنلتقط غرناطة، حبة حبة كالرمانة.

عاش الديك آكل الرمان الروسي

وفيفا فرديناالدو آكل غرناطة

كل شيء أحمر

كل شيء أحمر في غرناطة

اسمها..

وقصرها..

علم الثوار الموريسكيين في حي البيازين، أحمر..

وعلى باب الرمان، تحت راية فرديناالد،

دماء الغرناطيين، لم تبهت بعد.

((ترى هل سيعزف كورساكوف أوبرا الديك الذهبي لو كان يعلم بكل هذي الدماء))

(3)

يرقد كولمبس، يرقد لا أكثر، وبحسرة، فالخارطة البحرية التي أباحها لقشتالة من أرض وذهب وهنود، وقع عليها أمريكو باسمه ونسي

كـــولمبس، هكـــذا، كلعنـــة الأهرامـــات أبعدتـــه غرناطـــة عنهـــا، يتطلـــع الآن إلى مســـاعده رودريغـــو، ينتصـــب لـــيس بعيـــدا عنـــه، تمـــر بـــه إشـــبيلية صـــباحا، وتنســـى كـــولمبس، حتـــى النســـور التـــي رافقـــت أشرعتـــه إلى هنـــاك كتميمـــة حـــظ، تحـــوم الآن حـــول الخيرالـــدا ولا تحـــط عليـــه ولا تـــذرق حتـــى، كـــأنما لم يكن كرستوف كولمبس جنديا دخل غرناطة مع قوات جنوى..

لعلهـــا ذات اللعنـــة التـــي أهلكـــت ثلثـــي ســـكان إشـــبيلية القشـــتالية منتصـــف القرن السابع عشر للميلاد؟

المـــؤرخ خوســـيه ماريـــا دي ســـينا ســـيذكر - أيضـــا - زلـــزالاً مـــدمراً بعـــد قـــرن آخر، لعنة من هذه؟

(4)

رودريغـــو، حامـــد، المـــلاح الأندلسيـــ، يتـــذكر الثلاثـــة، هـــلالاً وبـــدراً، أبـــاه وشقيقه وابنته قمرين، ويبكي..

الإيطالية كارمن ترنو إليه وتبكي..

ترى هل تذكر الآن أباها، كولمبس؟

الكـــل نســـوه، نســـوا كرســـتوف كـــولمبس، فـــاتح الطريـــق لإبـــادة الهنـــود ..كلهـــم نسوه

لكن خوان رودريغو لم ينس تعاليم أبيه، تذكرها حين مات زميله البحار وكان موريسكيا أيضا، فدفن خوان صاحبه الموريسكي هناك في أول الجزر، تذكر الحاج هلال والده وهو يدفنه، ولم ينس القبلة.

بعض المخيم لم يستسغ ما قدمته خيمة مدريد، لأنهم كما قالوا غايروا به السرد السائد، لكن آخرين، عدوا قراءة المدريديين ممتعة، وتابعوا إيماءاتها، كانت ثرية وموحية كما قالوا، كأني أراك صديقي مستمتعاً أيضا، إذن لأحاول رسم لوحتهم الأخيرة لك..

من فكرة اللوحة المزدوجة أو المتحركة التي أبدعها يحيى المجريطي وأعاد تنفيذها بموضوع مختلف مواطنه وسميه يحيى المدريدي، أنجز الرسامون الأربعة معا لوحة لا يمكن توصيفها بدقة على أنها لوحة وكفى، هي مجموعة لوحات تتوالد دون توقف، لوحات أكثر من أن تعد، تماما، مثلما الطيف الشمسي مجموعة ألوان لا يمكن عدها، لكن بعضها يكمل بعضا، وإن كانت في نفس الوقت واضحة الاختلاف والتباين، باختصار كانت لوحات تتحرك مشاهدها على الشاشة وتتغير، تشد المتلقي ثم تختفي، لتولد أخرى محلها، تتمازج ببعضها، وبعضها يولد من بعض، لكنها جميعا تشكل بانسجام لوني بديع اللوحة الأم، وكان اسمها..

وردة السلام: مايوركا

المشهد الذي لم ينسه الموركة حتى بعد أن حزموا خيامهم وحقائبهم وعادوا للشتات من جديد، هو مشهد الخيرالدا الجديد الذي رسمته أنامل المدريديين على الشاشة الكبيرة وسط المخيم..

كما تتشكل غيمة خفيفة تشكلت كاتدرائية إشبيلية، بانت الأرض أولاً، رشتها بنات أندلسيات بالخضرة، فامتلأت ورودا وألوانا، قبلها، مرّ فينيقيون، مرّ هاني بعل، ثم إيبيريون أوائل، ومر القوط الجرمانيون، وحل لثمانية قرون وأكثر، المسلمون..

نما المبنى كما تنمو الزروع بتأن، مسجد إشبيلية أمامنا، بأعمدته وبهو البرتقال فيه وأروقته، وتصاعدت المئذنة، وعلى سلمها الملتوي يصعد المؤذن على فرسه، يصعدها خببا ويؤذن للصلاة، آسر صوت المؤذن، شق اللوحة وانتشر في المخيم، وكأشجار التفاح في إشبيلية، أثمرت المئذنة، تفاحات أربعاً، إنما من ذهب..

ثم اندفع الشمال الإسباني، رسمته اللوحة يندفع، عبر جبال البيرانس اندفعوا، ومن أشتوريا، من صخرة بلايو والكوفا دونكا، ومن البحر، ورنت الأجراس، أجراس الكنائس، جرس الكاتدرائية الكبير، شدت المخيم دقاته، وارتعش، وفي مشهد مؤثر، تهادت كأنها تطير، تفاحات الذهب وتحت الكاتدرائية سقطت، ثمة حرائق صغيرة في ميدان

إشبيلية، وثمة استغاثات، وثمة بشر يحترق، امتلأت المشاهد بالنيران المقدسة على اتساعها، وكان الخيرالدا فارس الرياح شيئا فشيئا يرتفع، يقص خطى المؤذن صاعدا، وبرمحه يطعن كل الجهات، يهش الحمامات كي لا تحط عليه، وفي لمحة، فزَّ منها الحضور جميعا، اختفى الخيرالدا المسلح، هدمه المدريديون بريشاتهم، وبدلا عنه، نحتوا تمثالا لمايوركا جميلة ساحرة، حلت محله، كمايوركات كريم كاسياس كانت، اطمأنت قلوب الحاضرين لها، رفرفت حمائم حولها، كأنما تطوف، وكانت جمل بكل لغات إيبريا تدور، دوار المخيم تدور، كلمات السلام، وكانت الأخيرة منها تقول ومعها كانوا يرددونها

السلام لإسبانيا، وطني الحبيب

السلام على الأندلس..

وحل السلام..

شاعت نسائم السلام في المخيم وعم التسامح مع ما عرض من مشاهد وحكايات وراح الجميع موراكة وإسبان، قشتاليون وكتالونيون وبشكنس وأندلسيون، بعضهم يهنئ بعضا على نجاح المخيم، ووسط هذه المشاعر الطيبة وزعت آخر المشاركات التي لملمت الحكاية، حكاية قمرين، أم الحكايات، وكانت لخيمة العدوة المغربية، وفاءً لأهلها جعلوها مسكاً للحكاية..

ظل حامد بن كناري يتسقط الأخبار حتى عرف أنَّ جدته قمرين في هولندا، ولم يكن قد رآها من قبل، لكنه كان كمن عاش في أحضانها من كثرة ما تحدث له علي الخير عنها، خاصة حين أخبره برحيلها إلى هولندا، وأوصاه بالالتحاق بها حين حضره الموت، فأبحر إلى هناك سرا، وكانت البرتغال في تنافس وحروب بحار مع هولندا بعد سيطرة الإسبان على البرتغال وتوحدهما تحت حكم مدريد عام 1580 وما بعدها، وهناك، في لاهاي، علم برحيلها مع خاله عمار إلى البصرة، وكان يتابع أخبارها مذ رحلت، ثم قرر اللحاق بهما، فعاد أولاً إلى البرتغال، لم تذكر المصادر التاريخية سبب عودته، ثم رحل مع سفن الأرمادا البرتغالي إلى خليج البصرة، وكان معه على نفس السفينة المؤرخ والرحالة البرتغالي بيدرو تخسيرا، وكان هذا يهوديا مكثلكا، رتب سفره لتحاشي محاكم التفتيش بعد تصاعد نشاطها في البرتغال أخيرا..

صارا صديقين، وكان حامد متعمدا صداقته، فمن خلاله بلغ البصرة، وهناك بحث عن جدته قمرين، وكانت قد ماتت، والتقى بخاله عمار، أفضى كل منهما للآخر بما يعرف، كان حامد قد تجاوز الخمسين، وكان أصغر من خاله بثلاثة عشر عاما، بقيا كأخوين، وانتهت أخبارهما هناك في البصرة، لكن ثمة نتف معلومات متفرقة تشير إلى أنّ حامداً فارق خاله أشهرا وذهب مع بيدرو تخسيرا إلى مدينتي النجف وكربلاء وزار أضرحة أهل البيت عليهم السلام كما أوصاه علي الخير حين وفاته، وثمة خبر يقول إنّ حامدا تزوج شقيقة زوجة خاله، وعاشت العائلتان في دار

واسعة واحدة، لم يسموا صبيانهم بغير هلال وبدر وحامد وعمار وعلي وكريم وسموا بناتهم جيلا بعد جيل قمرين وكناري وفاطمة..

هل أدركت صديقي الآن، لماذا سماني أبي بعمار، عمار إشبيليو؟

أنا لم أستطع على الرغم من كل أبحاثي وتدقيقاتي أنْ أعرف لمن أنتسب تحديدا، لحامد بن كناري أمْ لعمار بن قمرين؟ الذي كان معروفا بعمار إشبيليو، لقب به أثناء وجوده في إشبيلية حيث اعتاد الموريسكيون مناداته به..؟

كما أعترف بأني عجزت عن التحديد الدقيق، عمن كان عمار إشبيليو يروي، عن أيّ حامد؟

حامد بن قمرين الذي أخذته محكمة التفتيش في إشبيلية في بلد الوليد أم حامد بن كناري الذي سكن البصرة؟

كلاهما كان مؤلفا، وكلاهما كتب الكثير عن سيرة العائلة وتاريخ الموريسكيين، وكل منهما كان أديبا وكاتبا للقصص والحكايات..

فمن منهما حامد الأندلسي ـ الذي كان عمار إشبيليو الأول يروي عنه، وينسب كتاباته إليه؟

بعض الأبحاث تشير إلى أن المقصود هو حامد بن قمرين الذي يذكره سرفانتس، أكثر من مرة، كمصدر لحكاياته عن دون كيشوت، ويسميه، سيدي حامد العربي..

لكن حامداً الآخر، بن كناري، كان كخاله مؤلفا بارعا وكاتبا جيدا، وقد عرف أدقّ التفاصيل عن سيرة عائلته وتاريخ الأندلس والموارکة من مربيه وأستاذه علي الخير..

حدائق الأندلس

انتهت الرواية، أو هكذا ظننت، فخرجت بأولادي للتنزه، كما وعدتهم، فقد تأخرت في إنجاز وعدي لهم باصطحابهم للتنزه في حدائق الأندلس، بمحاذاة ميناء المعقل في البصرة، أخرني عمار إشبيليو حين تدفقت رسائله وحكاياته على بريدي الإلكتروني، والآن، حلت حبال مخيمهم، المواركة، وعاد كل إلى بلده، كنت كمن خرج من حمام بخار ساخن، أشعر بالخفة والارتياح، فقد انتهت الرواية، رواية (مخيم المواركة) هكذا سماها مؤلفها، عمار إشبيليو، فرحي وارتياحي انعكس على لعبي مع الأولاد في حدائق الأندلس، وفجأة رن هاتفي بنغمة الإنترنيت الخاصة به، بـ عمار إشبيليو، وفتحت رسالته..

((السلام عليكم، صديقي العزيز، أنا الآن أتنزه في حدائق الأندلس، قريبا من ميناء المعقل، وألهو مع أولادي، أين أنت الآن؟ !))

-انتهت-

بعض شخصيات الرواية

1- الحاج هلال بن سعيد القرطبي (اسمه الإسباني، كروس رودريغو)

2- بدر بن الحاج هلال الملقب ب بدر البشرات (بيدرو رودريغو)

3- حامد بن الحاج هلال – الملاح الأندلسي (خوان رودريغو)

4- حامد بن بدر بن الحاج هلال (خوان رودريغو)

5- بدر بن حامد بن بدر بن الحاج هلال– زوج قمرين (بيدرو + مارتينو + ماركوس)

6- قمرين بنت حامد/ خوان رودريغو الملاح الأندلسي (كامرين)

7- حامد بن قمرين (خوان)

8- عمار بن قمرين (أمارو)

9- كناري بنت قمرين

10- حامد بن كناري

11- عمار بن كناري

12- زكي أو كريم كاسياس أو زاكاو

13- علي الخير

14- كولاني أو بيتر باستن الهولندي (قتل أو غرق في خليج البصرة)